الإسلام والمسلمون فى الفلبين

تأليف

محمد يوسف عدس

و تقديم

أ.د. محمد إبراهيم كاظم

الجزء الأول

(طبعة إلكترونية)

محتويات الكتاب

تقديم أ.د. محمد إبراهيم كاظم ٤
مقدّمة المؤلف ٨
خريطة الفلبين ١١
علاقة المؤلف بالفلبين والفلبينيين ١٢
الفصل الأول : الفلبين من الاحتلال حتى الاستقلال ١٩
- ماجلان يكتشف الفلبين ٢٠
- الاحتلال الأسبانيّ ٢٦
- إنهيار الإمبراطورية الأسبانية ٣١
- الثورة الفلبينية ٣٢
- الفلبين من بداية العهد الأمريكيّ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ... ٤١
- الاستقلال ٤٤

الجزء الثانى

انتشار الإسلام.....
المقاومة الإسلامية للاحتلال الأسباني .....
حروب المورو" .....
- المرحلة الأولى .....
- المرحلة الثانية.....
- المرحلة الثالثة .....
- المرحلة الرابعة .....
- المرحلة الخامسة .....

- المرحلة السادسة .....
الاحتلال الأمريكيّ .....
- الأمريكيون ينكثون في وعودهم .....
قيصر أديب ماهول وآثار حرب المورو .....
- أعداء المسلمين في الفلبين.....
- القومية المورواوية .....
ماركوس وسياسته تجاه المسلمين .....
- المستوى الأول .....
- المستوى الثاني .....
- المستوى الثالث .....
- تقييم العمل السِّرّيّ.....
- تقييم العمل العسكريّ .....
- تقييم أوضاع المقاومة الإسلامية .....
- سقوط ماركوس .....
الصعود إلى الهاوية .....
من بذور الشر تنبت الشجرة الخبيثة .....
- دعوة كاذبة وحصاد مغشوش.....
- خرافة المشروعات العملاقة.....
- الانقلاب السافر على الديمقراطية.....
- أحداث ١٩٨٦ ونهاية الطاغية.....
- بنينو أكينو المناضل الجسور.....
- الاغتيال أحد أساليب ماركوس..... .
- زاعم ماركوس الإصلاحية .....
- جوهر التطبيع ومحتواه .....
١٢٢لرضا الأمريكي السامي
- مسلسل التزوير مستمر حتى النهاية
- الحصاد المرّ والاقتصاد المنهار
- انعكاسات التدهور الاقتصادى على الوضع العام
- الجيش الفلبيني كفاعل سياسي
- وقائع ثلاثة حاسمة في سيرة ماركوس
كورازون أكينو
فيديل راموس
جوزيف استرادا
الرئيس بنينو أكينو الثالث واتفاقية بنجسامورو .....
دوافع فلبينية
مؤثرات خارجية
سلام مندناو وتحدّيات المستقبل

العلاقة بين حكومة مانيلا وحكومة بنجسامورو
التحدّى الاقتصادي
تحقيق الجزيرة نِتْ
تفاؤل حذِرْ
التمييز العنصري
مُسْلِمات مورو .. تضحياة وتنمية
التحدّيات المتعلِّقة بالتنمية
الرئيس رودريجو دوتِيرْتى
محادثات السلام مع المسلمين
نبذة عن جبهة تحرير مورو

المراجع
تعريف بالمؤلف للدكتور كمال عرفات نبهان

تقديم أ. د. محمد إبراهيم كاظم

بدات العلاقات بين العرب وبين شعوب الشرق الأقصى منذ زمنٍ سحيق ؛ فقد كان العرب من أهالي الجنوب العربيّ يقومون برحلاتهم البحرية إلى شبه جزيرة الملايو وإلى الصين والجزر المجاورة ، وهي التي تُسَمَّى بأندونيسيا والفلبين .
وكان في كانتون الصين مركز تجاريّ عربيّ وجالية عربية منذ القرن الثالث قبل الميلاد، كما كان هناك – من ذلك الحين – تبادل وتَعَامُل بين العرب وسُكَّان الفلبين.
وابتداء من القرن التاسع الميلاديّ بدأ الإسلام يظهر في هذه المنطقة وينتشر بها .
وفي القرن الخامس عشر وُجِدَتْ سلطنات إسلامية مستقلة عن بعضها ، ولكنها كانت تُشَكَّل في صورة ما وحدة مع ملقا بالملايو وأندونيسيا .
ثم بدأ موجات الاستعمار تصل إلى هذه البقاع ، وكان أن انفصلت مجموعة من الجزر تزيد عن السبعة آلاف جزيرة لتصبح كيانًا متميِّزًا مستعمرًا ، أَسْمَاهُ المستعمرون الأسبان "الفلبين " تيمُّنًا باسم الملك فيليب .
وأغلقت الفلبين طوال القرون الأربعة التالية على نفسها ومستعمريها الأسبان ثم الأمريكيين ، وتقلصت علاقاتها مع أخواتها وجيرانها في الشرق الأقصى والشرق الأوسط.

ورغم أن الاستعمار لم يستطع أن يَطمِس الوجه الفلبينيّ الأصيل تمامًا ، فمما لاشك فيه أنه غَطَّاهُ بغطاءٍ كثيف عن طريق الثقافة والعادات والتقاليد واللغة والدِّين ، مما تختلف فيه عن جيرانها وتتشابه فيه معه .

ولكن عناصر الأَصالة التي لم تَمُت أبدًا في الشعب الفلبينيّ ما لبثت أن تفاعلت وتجاوبت مع

الآراء والأفكار التحررية والقومية ، التي كانت تموج بها أوربا في أواخر القرن الماضي ، وما لبثت هذه الاتجاهات التحررية أن تبلورت في ثورة أصيلة ضد الاستعمار الأسبانيّ ، انتهت بالنصر وإعلان الجمهورية قُبيل نهاية القرن الماضي .

غير أن الجمهورية التي انتصرت على أسبانيا ما لبثت أن سقطت في براثن أمريكا ، وكان أن تعرضت الفلبين لتجربة جديدة مَريرة مع الولايات المتحدة الأمريكية التي اتجهت إلى الغزو الفكريّ والثقافيّ كدعامة للغزو العسكريّ ، وبديل له في الوقت المناسب ، ولذلك لم يكن غريبا أن أنشأت السلطة الأمريكية – في مانيلا وحدها – سَبع مدارس ثانوية في أسابيعها الثلاث الأولى من الاحتلال ، إلى جانب العديد من المدارس الابتدائية ، هذا بالإضافة إلى إغراق الحياة الفكرية بالتأثير الأمريكيّ عن طريق الراديو والإذاعة والصحافة والسينما .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية وتعرضت الفلبين للغزو اليابانيّ ، كافح الشعب الفلبينيّ وانصهر بنيران المعركة التي فَقَد فيها ما يزيد عن المليون من أبنائه .
وعندما عادت أمريكا إلى الفلبين بعد انتهاء الحرب وَوَجدت أن شعبها مازال مُغَلّفًا بالطابع الأمريكيّ لم تَلْحظ أنه أيضًا قد تأثَّر بالشعار اليابانيّ «آسيا للآسيويين » ، وأنه قد اتجه بصورة جادة للبحث عن حقيقة نفسه والتَّعَرُّف على روحه الأصيلة .

وليس عجيبا إذن أن بدأت تيارات اجتماعية وسياسية متعددة تنفذ وتظهر على السطح . وقد كان بعض هذه الاتجاهات غير مسموح به فتعرض للقمع الذي لا يقبل مهادنة ، كما حَدَث لما يُسَمَّى بثورة « الهوك » وكان البعض الآخر مسموحًا به ، أو لم يكن من الممكن مقاومته ، مثل التيار نحو القومية الفلبينية المتميزة التي تتجه للاستقلال تحت شعار « الفلبينيّ أولًا » .

في سنة ١٩٥٥ اشتركت الفلبين في مؤتمر"بانودنج " ، ولا ينبغي أن نتغاضى عن الأبعاد الهائلة والمعاني العميقة التي تَضَمَّنها مجرّد اشتراك الفلبين في هذا المؤتمر التاريخيّ . فأقل ما في الأمر أن الفلبين بدأت تنظر لنفسها باعتبارها جزءًا من آسيا وجزءًا من الدول الأفروآسيوية ، وبدأت تكتشف ذاتها الخبيئة تحت ظلال القرون ، وبدأت تهتم بما يدور حولها ، وإن لم يكن هذا ليعني إنصرافها عن فلك أمريكا .

وفي باندونج طلب السناتور "أحمد دوموكاو ألنتو" - زعيم مسلمي الفلبين الذي كان عضوًا في وفد الفلبين – مقابلة رئيس وفد مصر الرئيس جمال عبد الناصر ، وكان هذا اللقاء أول لقاء بين زعيم فلبينيّ مسلم وبين رئيس دولة عربية مسلمة ، وكانت هذه المقابلة والأثر الذي تركته ، بداية للعلاقات الجدية بين مصر وبين مسلمي الفلبين ، بل المقدمة لقيام العلاقات بين مصر والفلبين على المستوى الرسميّ لأول مرة في التاريخ المعاصر .

وتلا هذا اللقاء زيارات من الشيخ الباقوريّ وزير الأوقاف في ذلك الوقت، والسيد علي فهمي

العمروسي سفيرنا في أندونيسيا . كما تَصَادف أن كانت زيارتي الأولى للفلبين في تلك الفترة أيضًا .

ولقد كان لهذا اللقاء والزيارات أعمق الآثار في جميع المستويات ، حتى أنَّ جماهير المناطق الإسلامية كانت في أعلى درجات الحماس والتجاوب حين وقع العدوان الثلاثيّ على مصر سنة ١٩٥٦ ، إذ تقدم الآلاف منهم للتطوع لقتال المعتدين ، كما تكرّر هذا الموقف العظيم إزاء عدوان ١٩٦٧، حسب ما تناقلته وكالات الأنباء .

وكأثر من آثار هذه الصفحة الجديدة في علاقات الفلبين بالبلاد الآسيوية والعربية قامت بين مصر والفلبين علاقات دبلوماسية ، واستجابت حكومة الفلبين لرغبة زعماء المسلمين فَعُيِّن السيد " بولنج عرفة " أول وزير مُفَوَّض للفلبين في مصر سنة ١٩٥٧م ، وكان أيضًا أول مسلم يُعَيَّن في مثل هذا المَنْصب .

وفي سنة ١٩٥٨ زار السناتور « ألونتو » القاهرة وقَابَل المسئولين ممهدًا لبداية مرحلة نشطة في العلاقات بين [مصر] "الجمهورية العربية المتحدة" . وبين مسلمي الفلبين الذين أخذوا يتطلعون إليها باعتبارها الأمل الكبير في تلك الفترة الحرجة من تاريخ اليقظة الإسلامية هناك .

ثم أُنشئت المفوضية المصرية بالفلبين سنة ١٩٥٨ ورفعت إلى سفارة سنة ١٩٦٠ ، وتوثَّقت العلاقات بين الفلبين والجمهورية العربية المتحدة على المستويين الرسميّ والشعبيّ ، وظهر العديد من المجالات الثقافية والاقتصادية التي اتجهت الدولتان إلى تدعيم روابطهما فيها تحقيقًا لمصالحهما المشتركة .

وأقبل الطلبة الفلبينيون على القاهرة يَنْهلون من مراكز العلم والثقافة فيها. وقد بلغ عدد الطلبة عدة مئات من الشبان والشابات المسلمين والمسيحيين على السواء، كما تُبودلت بين البلدين البعثات الثقافية والفنية ، وخلال الأعوام الأخيرة ارتفع حجم التبادل التجاريّ إلى آفاق جديدة .
ومما لا شك فيه أن الشعب العربيّ في مصر يرحب بكل تَقَارب بينه وبين الشعوب الآسيوية ، كما يبارك كل جهد يؤدي إلى مزيد من التعارف والتقارب .
والفلبين بموقعها الفريد ، وبظروفها الفذة ، وبتاريخها المتميز ، وبامكاناتها الضخمة من ناحية الثروات المادية والبشرية ، وباحتمالات المصالح المشتركة بينها وبيننا تستحق منا كل اهتمام وعناية .

وهذا الكتاب عن الفلبين يُعتبر ظاهرة في حد ذاته ، فهو يَعني أن جماهير الشعب العربيّ المثقفة لم تعد لتكتفي بالمصادر والكتابات الأجنبية لتتعرف على جيرانها وأصدقائها من شعوب العالم ، كما أن الكُتّاب العرب بدأوا يهتمون بهذه الشعوب الصديقة وينفعلون بتجاربها وحياتها ويؤلفون عنها .

ومُؤَلّف هذا الكتاب الأستاذ محمد يوسف عدس كان ضمن مُمَثِّلينا الثقافيين إلى الفلبين، أي أنه شَارك في يوم من الأيام في تقديم الجمهورية العربية لشعب الفلبين ، وها هو اليوم يُكْمل جهده بأن يُقَدِّم الفلبين في هذا الكتاب إلى الشعوب العربيّة .

هذا الكتاب ليس ثمرة جهد أكاديمي فحسب بل خلاصة عمل ميدانيّ أيضًا ، فقد اهتم المؤلف أثناء وجُوده في الفلبين أن يتحرك ويَرى ، ويُمَحّص ويدرك ، ويُقَارن ويَغُوص ويقرأ بقدر ما يستطيع لينفعل بهذا الشعب وينفذ إلى الأسس التي تقوم عليه حياته وقيمه ومُثُله وأهدافه . ثم ها هو يعرض هذا علينا ، ثقة منه بأن العلاقات الوطيدة الباقية بين شعوب العالم اليوم لا تقوم على العاطفة ولا التمنّي ولا الصُّدْفة ، ولكنها تَقُوم على الفَهْم والإدراك العلميّ والدِّراسة المتأنية والبحث الواعي .

ولقد كان من حَظِّي أن تعددت زياراتي للفلبين في مهام رسمية وغير رسمية ، كما أن اهتمامي بها يمتد إلى ما قبل سنة ١٩٥٥ ، وكنت دائمًا أرى أن الوقت قد حان لتضم المكتبة العربية كِتابًا جادًّا عن الفلبين ، ويظهر أنه لم يكن من قبيل الصُّدفة المَحْضَة أن وُجِد هذا الكتاب .

وكُلِّي أمل أن يجد الكتاب ما يستحقه من اهتمام القُرَّاء وأن يتحقَّق به مَزيد من الفَهْم والتَّقارب بين الشَّعبين ، ومزيد من الاهتمام بالشعوب الآسيوية الصديقة في هذا العصر الذي تشابكت فيه مصالح الشعوب ونَشَط التعامل بينها ، وليس هناك خير للتعامل المثمر السليم بين الشعوب من أن يقوم على نَشْر الكتابات الجادة والعلم السليم أساسًا لمعرفة صادقة وتعرُّف نافذ. والله ولي التوفيق .

أ.د. محمد إبراهيم كاظم

"الملحق الثقافيّ لمصر بالفلبين سابقًا
مدير ومؤسس جامعة قطر،
مدير المكتب الإقليمي لليونسكو فى الدول العربية،
الممثل الشخصى لمدير عام اليونسكو"

[ملحوظة: كتب هذه المقدمة الدكتور كاظم رحمه الله للطبعة الأولى من الكتاب وكان عنوانه "الفلبين" ، صدرت الطبعة من دار المعارف سنة ١٩٦٩م ، في سلسلتها الشهيرة "شعوب العالم".]

مقدمة المؤلّف

أُسطورة قديمة كانت تجري على أَلْسِنَة الرَّحَالة العرب ، خلال القرن العاشر الميلادي عن « جزائر الوقواق » .. ظهرت أول صُورة مدونة لها في كتاب " مختصر العجائب" المَنْسوب إلى المسعوديّ ، حيث يقول :

« إنَّ من الأجناس الغريبة التي تسكن في أقاصي شرق العالم جنسًا أقرب إلى الإنسان .. يعيش في جزائر الوقواق ، وكلهم على شكل النساء . يصحن : [واق .. واق .. سبحان الملك الخلَّاق].. وإذا قبض على واحدة منهن سقطت ميتة » .

وأضاف القزويني أن الوقواق جزائر في بحر الصين تتصل بجزائر الزايج [يقصد مجموعة جُزر الهند الشرقية] .

وفى « جزيرة العجائب » وهو كتاب أُلِّف في القرن الرابع عشر الميلاديّ، يقول عمر بن الورديّ مضيفًا إلى الأسطورة مزيدا من التفصيلات ، حيث يقول: « وبهذه الجزائر شجر يحمل ثمرًا كالنساء أجساما وسيقانًا .. صِباح الوُجوه .. مُعَلَّقات بشعورهن ، فإذا أحسَسْن بالهواء صِحْن واق واق ، حتى تنقطع شعورهن فإذا انقطعت سقطن أمواتًا .. وقد رأى المسافرون بعض نساء تلك الأشجار أكبر من النساء وأطول شعورًا وأرْشَق قَوامًا وأطيب ريحًا .. عَرف الرَّحالون العرب بقربهن نعيمًا لا مثيل له .. وأرض الجزيرة كثيرة الطيب غنية

بالذهب والأبنوس والطيور .. لا يعرف ما بعدها سوى علام الغيوب» .

ومهما يكن من أَمر هذه الأخبار التي عُني بها كُتَّاب تلك العصور ليثيروا خيال العامة ويُشْبعوا تَطَلُّعها للأخبار الطريفة الأَخَّاذة ، فإن هناك حقائق شاهدها الرَّحالة العرب ودَوَّنُوها و تحدثوا عنها . وما يعنينا من هذه الحقائق هو أن نَعْرف ما هي جزائر الوقواق وأين يكون موضعها اليوم من خريطة العالم ؟

يستنبط بعض المستشرقين من أقوال الجغرافيين العرب أنها تقع إلى الجنوب الشرقيّ من الهند الصِّينية ، وتكاد خريطة الإدريسي تُطَابق بين جزائر الوقواق وبين ما يعرف اليوم باسم « جُزر الفلبين » .

وإذا كان الخيال العربيّ القديم قد استوعب بعض الأخبار عن جُزُر الفلبين ضمن ما كُتِبَ من أَساطير عن جزائر الوقواق ، فإن الرَّحالة العرب كانوا أَسْبق في الوُصُول إلى هذه الجزر والتَّعَرُّف عليها منذ القرن الثالث قبل ميلاد المسيح ، وهي نفس الفترة التي ظهرت فيها الجالية العربية في كانتون بالصين .

فلما جاء الإسلام وامتدت فُتوحاته زادت حركة الملاحة العربية في المحيط الهنديّ وفي بحر الصين ، وتَوَالَى زحف الإسلام حتى وَصَلت طلائعه إلى جُزُر الفلبين في القرن التاسع الميلادي، وهنالك سَجَّلت الموجة الإسلامية أقصى مدى لانتشارها تجاه الشرق ، حيث استقرت على حافة المحيط الهادي .

ولا ريب أَنّ رحلات العرب في البحار الشرقية واتِّصالهم بالجزر المنتشرة فيها ، كانت مَصْدر إلهام للمؤلِّفين الذين كتبوا أمتع القصص والحكايات التي امتزج فيها الواقع بالخيال ، وحفلت بأخبار العجائب وغرائب المخلوقات ، التي نسج منها الكُتّاب قَصَص ألف ليلة وليلة وفاضت بها مغامرات السندباد البحريّ .

لقد كانت هذه العناصر التاريخية والأُسطورية تجول في خواطري وأنا أقرأ عن جُزُر الفلبين ، إلا أن علاقتي لم تقتصر على القراءة والدراسة فحسب ، وإنما هي بالإضافة إلى ذلك صِلة حياة وأُلْفَة امتدت فترة من الوقت قضيتها بالمركز الثقافيّ العربيّ بمانيلا .
وقد أتاحت لي هذه الإقامة أن أرى وأسمع بنفسي وأعيش في قلب الحياة اليومية ، وأن أُقَارن بين مَا يُكتب عن الفِلبين وبين ما يجري في أَرض الواقع ، وأن أتَّصل بالناس وأقرأ الصُّحف وأُناقش الأحداث ، وأتحسس نبض الحياة .

كنت قبل سفري إلى الفلبين أَبحث عن كتاب واحد باللغة العربية يُعطي صورة ما عن هذه البلاد وحياة شعبها ولكني لم أجد شيئا من ذلك ، وهذا ما دَفعني لإعداد هذا الكتاب وتقديمه للقارئ العربيّ ، الذي انطلق اليوم في آفاق الأرض يبحث عن صَداقة الشعوب ، ويوَثِّق صِلاته بدول العالم خاصة الدول الأفرو آسيوية .

وهذا الكتاب محاولة على الطريق ، قُصِدَ بها أن تكون جولة في الفلبين وطَوافًا حول طبيعة أَرضها وتاريخ شعبها ، وإِعْطاء صورة عن حياتها الاجتماعية وظروفها السِّياسية والاقتصادية وَوَضْعها في العالم المعاصر .
وإذا كان هذا الكتاب قد تعرَّض بشيءٍ من الإسهاب لماضي التاريخ الفلبينيّ فقد كان ذلك بغرض البحث عن العناصر التاريخيةً التي أسهمت في تشكيل الحاضر ومَهَّدت لظهوره بصورته الرَّاهنة .

فبدون هذا المنهج لم يكن من المُستطاع فهم موقف الاستعمار الأسبانيّ من مُسْلمي الفلبين الذي اتَّسم بالتَّعَصُّب والقسوة البالغة.. ولا تفسير الأوضاع الحالية التي يعانيها المسلمون في الفلبين.

إنَّ الفلبين المعاصرة كانت ترتبط في أذهان البعض بحلف مانيلا ، وهو حلف معروف بتبعيته لأمريكا ، وقد تُوحي إلينا هذه الحقيقة بفكرة عن الشعب الفلبينيّ فنظن أنه يفتقر إلى روح النضال ، وهو اعتقاد أبعد ما يكون عن الصَّواب ، وذلك لأَن تاريخ النضال الفلبينيّ من أجل الحرية والاستقلال كان حافلًا بآيات البطولة والتضحيات ، ولم تتوقف الفلبين عن الثورة سواء في عهد الاستعمار الأسبانيّ أو في عهد الاستعمار الأمريكيّ، بل إنَّ شعب الفلبين كان أسبق شعوب آسيا على الإطلاق في الثورة على الاستعمار الغربيّ ، وكاد بالفعل أن يحقق استقلاله عن أسبانيا سنة ١٨٩٨ ، وأن يُقيم أول جمهورية آسيوية حرّة لولا تَدَخُّل الولايات المتحدة الأمريكية ، وخيانتها للثورة الفلبينية .

ولم تهدأ الفلبين طوال العهد الأمريكيّ ؛ فقد كانت الثورات تنفجر من وقت لآخر ، وكان أبرزها ثورة « االسَّكْدال » في سنة ١٩٣٥ ، وثورة "الهوك" في سنة ١٩٤٦، وفي كل من الثورتين برز مضمون اجتماعيّ تقدميّ واضح ، وتصدّت القوى الشعبية لسيطرة الإقطاع على الحكم ، وظهرت دعوة قوية إلى العدالة الإجتماعية .
وقد تدخلت أمريكا بكل ثِقلها لِقَمع الحركات الثَّورية الفلبينية تمهيدًا لوضع الفلبين ضمن مناطق نفوذها العسكريّ في جنوب شرقي آسيا واتخاذها قاعدة لضرب الحركات التحريرية في المنطقة.

إنَّ هذا الكتاب ولو أنه قد أعطى عناية خاصة للجوانب التاريخية والسياسية للفلبين بصفة عامة، وقد خصصتُ لهذا الغرض الفصل الأول الذى يستغرق ثلث الكتاب تقريبا، إلا أن هذا كان ضروريا لفهم أوضاع المسلمين الحالية فى الفلبين كما سبق أن أشرت.

أما الفصل الثانى فقد خصّصته لاستعراض أوضاع المسلمين في الجنوب الفلبيني بصفة أساسية، وفيه يتجلى صراعهم المصيري مع الاستعمار الأجنبيي ومع السلطات الحاكمة في مانيلا، وسنتبين تلقائيًّا أن هؤلاء المسلمين، لم يخضعوا ولم يعترفوا: لا بالاستعمار الأسباني، ولا الاستعمار الأمريكي.. و بعد الاستقلال- لم يخضعوا لأي حكومة فلبينية ؛ فلم

يشعروا بأي تغيير في سياسات الحكومات المتتابعة عن السياسات الإستعمارية السابقة تجاه الإسلام والمسلمين.

محمد يوسف عدس
ملبورن - أستراليا

الجمعة ٢٧مايو ٢٠١٦م

خريطة الفلبين

علاقة المؤلف بالفلبين والفلِبِّينيِّين

أقمت بالفلبّين فترة من الزمن مبعوثا من الحكومة المصرية سنة ١٩٦٤ لإنشاء وإدارة مركز ثقافى للتعريف بالثقافتين العربية والإسلامية .. وكانت الفلبين تنعم فى ذلك الوقت بازدهار إقتصادى وحكم مستقر فى عهد الرئيس "ديوسدادو ماكاباجال" أهّلها لأنْ تكون فى مقدمة بلاد جنوب شرق آسيا، ولكنها فقدت هذا المركز فى عهد الدكتاتور فرديناند ماركوس" .

عاصرت أيضا حملة إنتخابات الرئاسة التى بدأت فى أواخر سنة١٩٦٤ وانتهت بفوز " فرديناند ماركوس " سنة ١٩٦٥ . وبعد فترتين رئاسيتين كان على ماركوس أن يرحل ويسلّم السلطة لرئيس جديد ولكنه فاجأ العالم بانقلاب على الدستور: ألغى فيه البرلمان وأعلن الاحكام العسكرية وحكم البلاد حكما دكتاتوريا لمدة أثنين وعشرين عاما .. سنوات عجاف من القهر والاستبداد والنهب والفساد .

تعرفت أثناء هذه الفترة على شخصيات هامة كان لها أثرها الكبير في استيعابي للأوضاع السياسية والثقافية والتاريخية للفلبين، من أبرز هذه الشخصيات « سناتور أحمد دوموكاوْ ألنتو » عِضْو الكونجرس الفلبينيّ ، وكان رئيسًا لجمعية مسلمي الفلبين، وهو أول فلبينيّ مسلم يلتقي بالرئيس المصريّ جمال عبد الناصر في مؤتمر باندونج لدول عدم الانحياز بأندونيسيا سنة ١٩٥٦ م .

كان "ألنتو" حريصًا على أن يشرح للرئيس المصريّ أوضاع المسلمين السيئة في الفلبين ، وأنهم في أَمَسّ الحاجة إلى زعيم مسلم قويّ ذي سمعة عالمية يسعى لدى الحكومة الفلبينية لإنقاذ المسلمين ومساندتهم .

وكانت هذه أول مرة في تاريخ المسلمين الفلبينيين الحديث يستطيعون الاتصال بالعالم الخارجيّ ، ويستيقظون على أمل جديد فقد اكتشفوا مصر الأزهر ، وعلى رأسها زعيم أشتهر آنذاك بأنه زعيم قوي ، وله مقارعات مع الاستعمار العالميّ . وأَثْمَر هذا اللقاء عن مفاوضات دبلوماسية بين الحكومتين المصرية والفلبينية وافتتاح أول سفارة مصرية بمانيلا سنة ١٩٦٠م ، وكان أوَّل ملحق ثقافيّ بها هو الدكتور محمد إبراهيم كاظم الذي تمكّن من عقد اتفاقية ثقافية مع الفلبين ، وبناءً على هذه الاتفاقية أُنتُدِبتُ سنة ١٩٦٤م لإقامة مركز ثقافيّ بـ « مانيلا » وتجهيزه وإدارته .

وفي عهد الدكتور كاظم نُظِّمت أول بعثات تعليمية من الفلبين إلى جامعة الأزهر والجامعات المصرية الأخرى ، وزار الفلبين الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر واطَّلع على أحوال المسلمين هناك ، فوجد بضعة نَفَر من المصريين خريجي الأزهر قد ارتادوا آفاق الدعوة والتعليم مُتطوِّعين ، فأكبر عزيمتهم وأَلْحَقَهم بوظائف رسمية ، وأتبعهم بآخرين عندما عاد إلى مصر ، وكذلك فعل الشيخ أحمد حسن الباقوريّ الذى زار الفلبين مِنْ بعده ودَعَم البعثات الفلبينية إلى الأزهر . وهكذا بدأت أفواج الشُّبان المسلمين من الفلبين يتقاطرون على مراكز التعليم في مصر .

غبت بعد ذلك عن الفلبين فترة من الزمن حيث انتقلت للعمل في أماكن أخرى ، ثم عُدت إليها في زيارة قصيرة في أوائل الثمانينات من القرن الماضي ، أدركت خلالها أن الفلبين قد تغيّرت كثيرًا فقد كانت ترزح تحت وطأة أسوأ حكم استبداديّ شهدته في تاريخها الحديث ، ذلك هو حكم الدكتاتور « فرديناند ماركوس » وزوجته « إميلدا » .

رحت أَبحث عن الأصدقاء الذين كنت أعرفهم من قبل ، فوجدتهم جميعًا قد فروا خارج الفلبين خوفًا من الاضطهاد وملاحقة رجال الأمن الذين سَلّطَهم « ماركوس » على كل الأحرار وأصحاب الفكر المستقل في البلاد فتبعثروا في آفاق الأرض.

من هؤلاء الأصدقاء أذكر: " بينفِنيدو سانتوس" نائب رئيس جامعة الفلبين .. و"قيصر أديب ماهول" أستاذ التاريخ بنفس الجامعة.. و"جى فى كروس".. الصحفى الجرىء الذى كان يدافع عن حركة الحياد الإيجابى وعدم الإنحياز، والذى دافع بحرارة عن حرية الطلاب المسلمين الذين ذهبوا لتلقّى العلم فى جامعة الازهر، وكانوا يتعرّضون لحملة إعلاميّة تتهمهم بالتعصّب الإسلامى وبأنهم سيقودون حركة الإنفصال عن الفلبين بعد عودتهم .. دفعنى لصداقة الرجل مواقفه الشجاعة.

حزنت على رحيل هؤلاء الأصدقاء ولكنى لم أندهش.. فأنا أعرف أن الأنظمة المستبدة طاردة بطبيعتها للوطنين الأحرار والمتميّزين والمبدعين .. ولا تجتذب إلا الإمعات والمنافقين وكل من لديه استعداد فطرى لبيع مواهبـه وخدماته وضميره بثمن معلوم .. لم أندهش عندما علمت أن الفلبين فى عهد ماركوس نزف مايقرب من ثمانمائة ألف فلبينى من خيرة أبنائه وأكثرهم علما وثقافة وخبرة ووطنية، غير مليون آخرين من طالبى الرزق هاجروا إلى دول الخليج .. تجّولت فى شوارع مانيلا وزرت أماكن عرفتها وأنِسْت بها مقيمًا ، فما ألْفتها ولا ألفتْنى زائرًا ممتعضًـا حزينًا ...!

وعندما كنت أعمل خبيرًا لليونسكو في جامعة قطر خلال عقد الثمانينات أُتيحت لي الفرصة مرة أخرى للقاء بروفسور « أحمد دوموكاو ألنتو » ، الذي أصبح مديرًا لمعهد الدراسات الإسلامية الذي أنشئ في مدينة « ماراوي » بمنحة من الملك فيصل رَحْمة الله عليه .

التقيت بالرجل وكان لا يَزال نشطًا رغم الشيخوخة والمَشِيب ، فتحدثنا طويلًا في شرفة فندق شيراتون المطل على خليج الدوحة ، فأفاض في الحديث عن تطور أحوال المسلمين ، وتبيَّن لي من حديثه أنه لا يزال يميل إلى الحُلول السلمية وعدم التَّصادم مع الحكومة الفلبينية ، ويُرَكز جهوده على التعليم والتربية والتنمية الاجتماعية والاقتصادية للمسلمين ، وفي هذا السياق أهداني كل مؤلفاته ومحاضراته التي ألقاها في مؤتمرات وندوات عديدة حول هذه القضايا ، وأبدى سروره أنني لازلت معنيًّا بأُمور المسلمين في الفلبين .

لا بد أن أرجع الفضل إلى أصحابه: فمعظم الشخصيات الفلبينية الذين عرفتهم أثناء عملي بـ « مانيلا » ،وبالتحديد الكاتب والصحفيّ « جي في كروس » ، والدكتور «بينفنيدو سانتوس » والدكتور « قيصر أديب ماهول » ، هؤلاء الثلاثة – في الحقيقة – كانوا أصدقاء مقرَّبين من الدكتور محمد إبراهيم كاظم ، فقد كان رحمه الله يتمتع بشخصية جذَّابة وثقافة واسعة لذلك كان يَحُوز منهم على كثير من الحب والإعجاب ، وقد أعداني بصداقتهم فلم يكن لي فضل كبير في التواصل معهم ، إذ كان يكفي أن أذكر اسم الرجل فتنفتح لي الأبواب بالترحيب وحُسْن الضيافة .

كان « جي في كروس » صحفيًّا لامعًا وكاتبًا رصينًا اشتهر بمقالاته التي كانت تُنْشَر في صحيفة « تيمز » بمانيلا ، وبها تحليلات نقدية للسياسة الفلبينية التي كانت تغوص – في ذلك الوقت – في مَسْتنقع حلف جنوب شرق آسيا ، وتخضع للسياسة الأمريكية خضوعًا مزريًا . أما هِو فقد كان مُنَاصرًا للحياد الإيجابيّ وعدم الانحياز ، وكان من الأصوات الفلبينية النادرة التي دافعت بمنطق قوي وعقلانية عن حقوق المسلمين المُهْدَرة ، تصدّى للحملات الصحفية المغرضة التي كانت تثير الشبهات حول برنامج البعثات التعليمية للشبان المسلمين في مصر ، وقد رَوَّج أصحابها لفكرة أَنَّ هؤلاء الشباب سيعودون مُشَبَّعين بفكر دينيّ مُتَشَدِّد لبعث الهوية الإسلامية وبث روح الانفصال بين المسلمين عن الدولة الفلبينية .

وكانت فكرة الدفاع المحورية عند « كروس » أن الذي سوف يدفع المسلمين دفعًا إلى الانفصال وحرب الدولة ليس هو تعليم الشبان المسلمين في مصر أو غيرها ، وإنما سياسة الإهمال والاضطهاد التي تتبعها السلطات الحكومية ومُعاملة المسلمين كمواطنين من الدرجة الثانية بلا حقوق ولا رعاية ولا خدمات ، وهذا هو الخلل الحقيقيّ الذي يجب على الدولة أن تقوم بعلاجه .

نبَّهتني كتابات « كروس » إلى مشكلة أخرى مركزية هي مشكلة الأرض التي استولى عليها المستوطنون المسيحيون في جنوب الفلبين ، والمآسي التي ترتبت على ذلك في المجتمعات المسلمة .
ولابد هنا أن أُشيد بالخدمة التي قدَّمها إليَّ أحد الأخوة من المعلمين المصريين في « مندناو » أرجو ألا أخطئ في اسمه بعد هذه السِّنين الطويلة ، أظنه الأستاذ « محمد حسين » ، علمت فيما بعد أنه انتقل للعمل في إحدى الجامعات السعودية بالرياض. عندما ذكرت له حَاجتي إلى دراسة مشكلة الأرض وسألته إذا كان لديه وثائق في هذا الموضوع ؟ فوعدني خيرًا وعاد في اليوم التالي بحقيبة كبيرة مليئة بالقصاصات الصَّحفية حول الموضوع ، وذكر لي أنه استعارها من إحدى الجمعيات المَعْنية بحقوق الإنسان في « مانيلا » ، فانكببت عليها أَلْتهم محتوياتها خلال أُسبوعين ثم أعدتها إليه شاكرًا فَضْله .
كانت هذه القضية بالذات حافزًا لي على تأليف كتاب عن الفلبين، نَشَرَتْهُ دار المعارف مختصرًا في سلسلة شُعوب العالم سنة ١٩٦٩ م .. وبقي عندي الكتاب الأصليّ غير منشورة حتى هذه اللحظة ..

أما « بينفيندو سانتوس » فقد كان نائبًا لرئيس جامعة الفلبين الوطنية وأُسْتاذًا للغة الإنجليزية بها ، وربما أهم من ذلك عندي أنه كان أديبًا مُبدعًا من أبرز كتاب القِّصة في الفلبين ، لا يَسْبقه سوى « نِكْ جواكين » الذي يعتبر نجيب محفوظ الفلبين ، أما «سانتوس » فقد كنت أَضعه في موضع الأديب الراحل يوسف إدريس .

كنت مع الدكتور محمد إبراهيم كاظم نشترك معًا في الإعجاب بمجموعته القصصية بعنوان You Lovly People، كتبها مبكرًا وهو في الولايات المتحدة الأمريكية بعد انتهائه من رسالة الدكتوراه ، وإذا بالحرب العالمية تُفاجئه فلا يستطيع العودة إلى بلاده، التي كانت تدور فيها معارك طاحنة بين القوات اليابانية والقوات الأمريكية .

انقطعت صلة « سانتوس » بأهله وبلاده وعاش محنة الاغتراب ، تُؤَرِّقُه مَشَاعر اللهفة والإشفاق والهواجس التي تحيط بمصائر ذويه وأصدقائه في الوطن الذي لم يعد أحد يعرف حقيقة ما يجري فيه مع هذه الحرب المهلكة ، ووجد « سانتوس » نفسه يغوص في أعماق مشكلات الفلبينيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة . كانوا يظنون أنهم سيسعدون في رحاب إخوانهم المسيحيين البيض ، فإذا بهم يصطدمون بصخرة مجتمع عنصريّ شديد القسوة على الملونين لا رحمة فيه ولا إنسانية . وقد انعكس كل هذا في مجموعة « سانتوس » القصصية ، ولعل هذا هو سر انجذابنا إليها ، أضف إلى ذلك أسلوبه الفذ في التعبير عن هذه القضية

الإنسانية .

عندما عُدْتُ إلى مصر شرعت في ترجمة هذه المجموعة ولكني اخترت لها عنوانًا آخر هو « المُعَذَّبون » الذي رأيت أنه أقرب إلى الروح السَّائدة فيها ، انتهيت من ترجمتها ولم أَسْعَ لنشرها في ذلك الوقت ، بل سافرت في أرض الله أكثر من عقد من الزمان فلما عدت وكنت قد نسيتها ، فإذا هي لا تزال في حوزة الدكتور كاظم عثر على أصولها أثناء عملية انتقال من مسكنه القديم في القاهرة إلى مسكن جديد . ذكر لي أنه كان قد أرسل إلى «سانتوس» يستأذنه في نشرِ ترجمةٍ عربية لمجموعته القصصية ، وأطلعني على رَدِّه بالموافقة مشترطًا شرطًا واحدًا وهو أن يتصدى لترجمتها شخص اكتملت لديه القُدْرة في اللغة العربية مع حاسة الذوق الأدبيّ جميعًا .
ولعل هذا أَحد الأسباب الهامة التي جعلت الدكتور كاظم حريصًا على أن يُراجع معي ما كنت أنجزه من الترجمة أولا بأَوَّل . وكان مكان لِقائنا في نادي أعضاء هيئة تدريس جامعة عين شمس في وسط القاهرة ، حيث تعرفت على عدد من أصدقاء الدكتور كاظم بالجامعة ، ونعمت بمشروب التَّمرهندي المُثَلَّج الذي كان يُقَدِّمه لنا في صيف القاهرة الحار . ولم تُنْشَرْ هذه المجموعة القصصية إلا بعد خمسة عشر عامًا ؛ نظرًا لطبيعة وظيفتى التي اقتضت منى السفر والإقامة بعيدًا عن أرض الوطن سنوات .
ويأتي في النهاية "قيصر أديب ماهول" أُستاذ التاريخ بجامعة الفلبين الوطنية ورئيس مركز الدراسات الإسلامية بها .
ليس "ماهول" أقل الشخصيات الفلبينية عندي ، بل ربما كان أَهَمَّها وأبلغها أثرًا في نفسي . أحتفظ له في ذاكرتي بلقطتين شتان بين سماته في الأولى والثانية ، كانت الأولى سنة ١٩٦٤ م والثانية بعد ذلك بعشرين سنة . أوَّل ما عرفته في مناسبة الاحتفال السنويّ لتوزيع جوائز التفوق العلمي التي اعتاد الرئيس ماكاباجال الاهتمام بها أبلغ الاهتمام ، وقد نَال « ماهول » جائزة الدولة على دراسته التاريخية المتميّزة لشخصية الزعيم الفلبينيّ « مابيني » أول رئيس وزراء لحكومة الثورة على الاستعمار الأسبانيّ في نهاية القرن التاسع عشر .

كان مابيني معوّق الجسم حبيس مقعده ولكنه كان مهندس الثورة وأكثر قادتها السياسيين ذكاءً وحكمةً وبُعد نظر ، لم يكن يثق في وعود الأمريكيين ونَواياهم في الفلبين، وطالما حَذَّر رِفَاقَهُ في الجناح العسكريّ للثورة ألا يَضَعُوا السلاح ، وأن يتمسَّكوا بمواقفهم ومَطَالبهم وأن يُدَافِعوا عنها في المحافل الدولية حتى يتحقق لهم الاستقلال الذي وعدتهم به الولايات المتحدة، وقد صدق حدسه حيث نكثت الولايات المتحدة بوعودها وتَفَرَّدت بالسلطة وأعلنت الأحكام العسكرية ومَزّقت جُموع الثُّوَّار ، ومن ذلك اليوم اندثرت سيرة «مابيني» حتى أحياها « ماهول » في كتابه الذي اعتمدتُ عليه كثيرًا في فهم مرحلة من أهم مراحل التاريخ الوطنيّ للفلبين .

عندما رأيت "قيصر أديب ماهول" في المرة الأولى كان شابًّا متألقًا لمَّاحًا ممتلئًا بالحيوية والطموح ، طريقته السريعة في الشرح تُوحي إلى مُسْتمعه بالثقة في قدرته الفكرية وسيطرته على موضوع الحديث .
فلما التقيت به بعد ذلك في جامعة قطر رأيت كهلًا هادئًا تَنُمُّ نظراته عن حُزنٍ دَفين ، كان مُقِلًّا في حديثه ولكنك تشعر في كلامه بحكمةٍ مُكَثَّفةٍ وخبْرة عميقة بالحياة والناس والأحداث .

جرى هذا اللقاء في إطار الاجتماع الأول للجمعية التأسيسية لمشروع إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية ، وهذا موضوع طويل ربما يكون له مجال آخر ، ولكن المهم هنا أن حُضور «ماهول» كان مفاجأة سَارَّة لي ، ومرة أخرى كان الفضل في ذلك للدكتور محمد إبراهيم كاظم الذي أَطْلَق هذا المشروع وجمع له أفضل العناصر من العلماء والمُفَكِّرين والأَكاديميين المسلمين من أنحاء شتى بالعالم .

الذي لفت نظري بِشِدَّة هو أن « قيصر أديب ماهول» قُدّم إلينا في الاجتماع باعتباره أحد المفكرين المسلمين وقد كان عهدي به أنه مسيحيّ .

سألته ونحن على انفراد قلت له : عندي لك سؤالان أَوَدُّ أن أطرحهما عليك ، فأنا مُتَشَوِّق لمعرفة إجابتك عنهما ، فابتسم قائلًا : أظن أنني أعرف أحد هذين السؤالين فما هو الآخر؟ قلت : السؤال الآخر هو : من هو «نور مسواري» زعيم جبهة تحرير مورو الوطنية ؟ فأجاب : إنه أحد تلاميذي المتخرجين من جامعة الفلبين .. استهل حياته بالتدريس في الجامعة ، ثم تفرّغ للعمل السياسيّ والعسكريّ وخاض أشد المعارك ضراوة ضد قوات « ماركوس » في الجنوب الفلبينيّ ، وهو أكبر أعداء دكتاتور الفلبين . قلت : إنه متهم بالشيوعية والتطرف !؟ فرد قائلًا : ليس هناك ثوريًّا حقيقيًا إلا أن يكون يساريًّا بمعنى من المعاني ، ولكنه ليس شيوعيًّا على الإطلاق . قلت : وكيف كان ذلك ؟

قال : المسألة هي مسألة أولويات فكرية .. وقد نظر «مسواري» في مشكلة المسلمين في الفلبين فرأى طبقة رأسمالية مستغلة تتمثل في السلطة المركزية وأتباعها في الإدارات المحلية ورجال الأمن .. ورأى عبيدًا في قاع المجتمع يُستغلون أبشع استغلال ، هم المسلمون ، الذين يُفرض عليهم هذا الوضع المهين بالقوة العسكرية والإرهاب ، ولم يجد لهذا علاجًا سوى الثورة المسلحة والانفصال عن السلطة الظالمة.. ويخطئ كثيرًا من يظن أن « مسواري » له أيديولوجية أخرى غير الإسلام.. المسألة كما ذكرت لك هي مسألة أَولويات في إطار هذه الأيديولوجية نفسها ، ولا تنسى أَنَّ العدالة الاجتماعية عميقة الجذور في الإسلام ، حتى أَنَّه يمكن القول أن الإسلام ليس في حاجة إلى ماركسية من خارجه .
سألته وماذا عن نائبه « هاشم سلامات » الذي انشق عليه ؟

فأجاب : « هاشم » و « مسواري » متفقان على الأهداف والاستراتيجيات ، ولكنهما يختلفان على الوسائل والأولويات في العمل .. وهذا طبيعيّ ، فكل منهما مختلف في نظرته وخلفيّه الثقافية ؛ فمسواري خريج جامعة الفلبين مفتوح على الفكر السياسيّ الغربيّ ، شديد الوعي بالتيارات السياسية الجارية في الفلبين ويعرف كيف يتعامل معها من منطق القوة ، أما « هاشم سلامات » فهو خريج جامعة الأزهر .. معلم وداعية .. تستند ثوريته إلى ثقافته الفقهية واستيعابه للنضال الطويل في تاريخ المسلمين ضد الاستعمار الأسبانيّ والأمريكيّ .. وأخشى أن يؤدي انقسامهما إلى انحسار المقاومة الإسلامية ولن يكون هذا في صالح القضية الإسلامية في الفلبين .

قلت لننتقل إلى السؤال الأول الذي أَجَّلْنَاهُ ألا وهو أنني عرفتك في سنة ١٩٦٤ وأنت مسيحيّ ، والآن أنت مسلم فما هي القصة ! ؟ تطلع ماهول إلى وجهي ثم أخذ نفسًا عميقًا وتنهّد وهو يقول : هذه قصة طويلة تحتاج إلى جلسات لا جلسة واحدة .. ثم سألني : هل قرأت كتابي عن المسلمين في الفلبين ؟ قلت له : رأيت الكتاب في مكتبة الدكتور كاظم الخاصة وأَعَارني إيَّاه ولكني لم أبدأ قراءته بعد . فقال:

عندما تقرأ هذا الكتاب ستدرك طرفًا هامًا من قصتي مع الإسلام .. فالدِّراسة التي أودعتها في هذا الكتاب كانت بداية رحلتي الفكرية للتَّعَرُّف على الدور الحقيقيّ الذي لَعِبَهُ المسلمون في الكفاح الوطنيّ الفلبينيّ ضد الاستعمار الأجنبيّ ، وقد تبيَّن لي أن هذا الدور لِقِي قَدْرًا هائلًا من التَّجاهل بل التَّشويه المُتَعَمَّد من جانب المؤرِّخين الفلبينيين .. هذه الحقيقة أسلمتني إلى سؤال طالما حيرني : لماذا كان هذا الإصرار على تشويه حقيقة النضال الوطنيّ لمسلمي الفلبين ؟ .. وخلال البحث عن أسباب ذلك هالتني حقيقة أخرى وهي أَن الإسلام نفسه كعقيدة قد ناله أكبر قَدْر من التشويه والهجوم الذي لا مُبَرّر له .. فالظلم التاريخيّ لم يقع فقط على المسلمين وإنما وقع أيضًا على عقيدتهم الدينية . وكان انتقالي في البحث من نقطة إلى نقطة أخرى هو الطريق الذي شاء الله أن يكون طريقي إلى الهداية .

بقيت هناك نقطة هامة لابد من ذكرها لتكتمل عندك الصورة .. فعندما أَسْلمت بدأت أَسْتَرجع شريط حياتي فأَرَاها بعين جديدة .. وانبثقت في ذاكرتي أَحْداث مطمورة فيها.. تذكرّت وأنا صَبيّ صغير أن أبي وهو من أَصْل لبنانيّ كان حريصًا على أن يقرأ شيئًا في الصَّباح قبل الخروج إلى عمله .. ومن كثرة ما سمعته حفظته ، دون أَعرف مَعْناه.. فلما قَرَأْت القرآن بعد ذلك علمت أن ما كان يَقْرَأُه أبي كل صباح هو آية الكرسي .. { الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ... } ، فسألت نفسي ما الذي جعل رجلًا مسيحيًا مثل أبي يحرص في كل صباح أن يقرا شيئا من القرآن !! وتأكد لي بعد ذلك أن أبي كان مُسْلمًا يُخْفي إسلامه ، ربما لأنه كان تاجرًا ويعيش في وسطٍ كاثوليكيّ شديد التعصب ، فإذا عرفوا حقيقة دينه دَمَّروا تجارته وشَتَّتوا أُسرته لذلك أَخْفَى إسلامه .

المؤلف يستقبل وزير خارجية الفلبين في السفارة المصرية بمانيلا يونية ١٩٦٤

الفصل الأول

الفلبين من الاحتلال حتى الاستقلال

ماجلان يكتشف جزر الفلبين

كان أول رجل أوربّي تطأ قدمه جُزر الفلبين هو " فرناند دي ماجلان" ولم تكن الجُزُر آنذاك تُعرف باسمها الحالي ، فلما اكتشفها ماجلان أُطلق عليها جزر « سَان لازار » ، ثم سمِّيت -بعد الاحتلال الأسباني- بجزر الفلبين تخليدًا لاسم فيليب الثاني ملك أسبانيا .

وكانت رحلة ماجلان إلى الشرق إحدى المغامرات البحرية الكبرى التي تَمَيَّز بها القرن الخامس عشر الميلاديّ والقرون التي تلته، وكان الحصول على التوابل هو هدفها الرئيسيّ،

حتى أنه يُمكن القول بأن تلك الحقبة من تاريخ العصور الوسطى الأوربية تُمَثّل عصر البحث عن التَّوابل بقدر ما كانت عصر الكُشوف الجغرافية ؛ فقد كانت التوابل آنذاك ذات أهمية اقتصادية بالغة في أوربا شأنها شأن البترول في العصور الحديثة.

وبدأ اهتمام أوربا بالتوابل عندما حضر الإسكندر الأكبر إلى الهند غازيًا وتَذَوَّقها فاستطعم مَذَاقها ، ثم جاء من بعده الغُزاة الرومانيون وعرفوا توابل الشَّرق وخلطوها بأطعمتهم ، ومن ثم بدأ الأوربيون يستخدمونها في إعداد الطعام حتى صارت عادة متمكنة ، فقد تبين لهم أن قليلا من التوابل يكفي لإكساب الطعام نكهة لذيذة لا عهد لهم بها من قبل .
كذلك عرفت أوربا أثناء الحروب الصليبية أنواع العطور العربية من المسك والعنبر وماء الورد ، وغير ذلك من الأشياء الثمينة التي كانت تستحوذ على إعجاب النساء في ذلك العصر ، كما أخذت الكنائس تستهلك المزيد من البخور العربية .

وكان الصيادلة الأوربيون يطلبون العقاقير الهندية كالأفيون والكافور والصمغ وغيرها لاستعمالها في العلاج ، فالدواء الذي لا تكتب عليه عبارة « وارد من الهند » أو « وارد من بلاد العرب » لا تكون له قيمة حقيقية في نظر العملاء ، ولا عجب فقد كان كل ما هو شرقيّ في ذلك الحين خليقًا بأن يبهر عقول الأوربيين ويَعمل في نفوسهم عَمَل السِّحر .
عَرف الأوربيون من خصائص التوابل تأثيرها على الأعصاب بالتهدئة أو الإثارة ، وفوائدها في معالجة النواحي الجنسية ، فوق أهميتها في حفظ اللحوم والأطعمة ، فارتفعت أسعارها ارتفاعًا باهظًا نتيجة للإقبال الشديد عليها ، لدرجة أن الفلفل كان يُباع أحيانا بالحبة الواحدة .

وأصبح للتوابل قوة شرائية تُعادل قيمة المعادن النفيسة ، فكانت تُقبل ثمنًا لقطعة أرض ، أو تقدم كمية معينة منها مهرًا للعروس ، بل اتخذتها الحكومات أساسا لميزانية وارداتها ، وكان رؤساء الكنيسة الفرنسية يَتَقَاضون نصيب الكنيسة من الخراج والزكاة توابلًا ، وفي ألمانيا كانت بعض الأديرة تقدِّم فطائر لرعاياها تعرف باسم « كعك المحبة » ، فلما أصبحت تضيف إليها الفلفل سُمِّيت بعد ذلك باسم الكعك المفلفل ، وكان يُقبل من العبد حفنة من الفلفل لافتداء حريته ، وكان الناس يصفون الرجل الغنيّ بأنه « كيس بهار » .

ويَرجع ارتفاع سعر التوابل في جانب منه إلى ما كانت تتعرض له تجارتها من أخطار النقل ومتاعبه ، فقد كانت المسافة بين الغرب والشرق شاسعة وكانت عمليات النقل مُغامرة محفوفة بالمخاطر والأهوال ، سواء بسبب اللصوص والقراصنة ، أو بسبب الملاحة في الأجواء العاصفة .
لم يكن أمام هذه التجارة سوى طريق واحد تتجه السفن فيه من الهند وبلاد الشرق الأقصى عبر المحيط الهنديّ ثم تتفرع في اتجاهين أحدهما عبر الخليج الفارسيّ ، والآخر عبر البحر الأحمر .. حتى تصل إلى مصر ومن هناك تنقل بطريق البر إلى الإسكندرية حيث يحملها تجار البندقية إلى أوربا .

وكانت مُعظم الفوائد تعود على التجار العرب وعلى سلاطين مصر ثم تُجَّار البندقية ، فإذا وصلت السلعة إلى المستهلك الأوربيّ أصبح ثمن الحفنة الصغيرة منها يوازي ثمن القنطار في موطنها الأصليّ .

ونظرًا للأرباح الوفيرة التي جمعها تجار البندقية من احتكار تجارة التوابل ونَقْلها إلى أوربا ، بدأ الفرنسيون وأهل جِنوى والأسبان ينظرون بعيون الحسد إلى البندقية ، ويحقدون على التجار العرب والأتراك لأن تجارة الشرق كانت ولابد أن تمر في أيديهم خاصة بعد أن حُرِّمَ على أي سفينة غير إسلامية اجتياز البحر الأحمر ، وقد ترتَّب على ذلك حرمان تجار أوربا من جانب كبير من الأرباح ، كما ترتب عليه نقل كثير من المعادن الثمينة من أوربا إلى مصر وبلاد الشرق ثمنًا للسلع الشرقية .

ولعل الرغبة في القضاء على سيطرة المسلمين على هذه التجارة كانت من أكبر الحوافز التي حرَّكت الحروب الصليبية التي تحالفت فيها دول الغرب المسيحيّ لانتزاع الأماكن المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين ، وللوصول في نفس الوقت إلى الهدف الاقتصاديّ الأهم بتحطيم السد الحائل دون البحر الأحمر ، وفتح أسواق الشرق أمام تجار أوربا دون وسيط .

فلما انحسرت موجات الحروب الصَّليبية وفَشَلت أوربا في القضاء على مصر مركز المقاومة وقاعدة الدفاع الحصينة، ولبث العالم الإسلاميّ قابضًا على طريق الهند – أصبح لزمًا على الغرب أن يُولي وجهه للبحث عن طريق آخر بعيدًا عن سيطرة المسلمين .
وكانت هذه مهمة الرواد الأوائل أمثال كولمبس ، وبرتلوميودياز ، وفاسكو دي جاما ، وماجلان وغيرهم من الرَّحَالة الذين ذهبوا يستكشفون طريقًا آخر إلى الهند غير طريق الشرق الأوسط .
وقد شاعت في أوربا إبّان العصور الوسطى أسطورة حول إمبراطورية خرافية تصوّروها في مكان بأقصى الشرق يحكمها ملك مسيحيّ هو القِّديس يوحنا ، وأكد هذا الاعتقاد ما ذكره « ماركوبولو » في أخباره عن رحلته إلى الشرق وإقامته في بلاد الصين فترة من الزمن .. [كثير من الأشياء والأماكن التي يدّعى ماركوبولو فى كتابه أنه شاهدها ، كانت مبالغات .. بعضها منقول حرفيًّا من كتب الرَّحالة العرب].

كانت هذه الشخصية الغامضة للملك القس – في ذلك العهد – موضوع حديث الناس في أوربا خاصة في الأوقات التي تأزَّم فيها موقف الأوربيين في الحروب الصليبية ، فقد كان الوصول إلى « مملكة القس يوحنا » والتحالف معه كَفِيلٌ بنجاح الغرب في القضاء على زعامة المسلمين ، وكَسْر شوكتهم في آسيا كلها ثم انتزاع الأرض المقدسة من قبضتهم .
وكانت أوربا تتنسم أخبار الملك المقدس وتَتَلَهَّف عليها حتى أن وصلت البابا أنباء جنكيز خان ، فَسَاد الاعتقاد بأنه لابد أن يكون هو نفسه القس يوحنا لِفرط عداوته للمسلمين ، ولكن سرعان ما تبخَّر هذا الاعتقاد .

وهكذا أصبح البحث عن مملكة القس يوحنا هدفًا متصلا بفكرة القضاء على المسلمين، وبالرغبة المُلِحة في الحصول على التوابل من موطنها بالشرق البعيد بعيدا عن سيطرة المسلمين .

وعندما اتَّجه « دالبوكيرك » إلى الحبشة مبعوثًا من قبل ملك البرتغال ، كان يعتقد أن ملك الحبشة المسيحيّ هو نفسه القديس يوحنا صاحب الأسطورة ، وكانت رأس هذا السفير تلتهب بفكرة جنونية تقضي بأن يقوم على رأس حملة عسكرية يزوّدها النجاشيّ بالمؤن والرجال ، ثم يعبر البحر الأحمر في مسيرة سريعة إلى المدينة لاختطاف رفات النبيّ ، ثم يعرضها على المسلمين مُقابل التَخَلّي عن فلسطين .

ومن بين الخطط التي اعتزمها « دَالْبوكيرك » تحويل مجرى النيل ليحرم مصر من أرضها الخصبة فيتم هلاكها وإخضاعها ، وقد كتب إلى ملك البرتغال يستدعي عُمَّالًا مهرة ليقوموا بفتح ثغرة بين سلسلة التلال الصغيرة التي تجري بجانب النيل في الحبشة ، ولكنه توفى سنة ١٥١٥م واندثرت معه مشروعاته الجهنمية دون أن يضعها موضع التنفيذ .
و « دالبوكيرك » هذا هو نفس الرجل الذي وقف من قبل على أبواب « ملقا » الحصينة يقول لبحارته : « إنني مقتنع كل الاقتناع بأنه منذ اللحظة التي تُنتزع فيها تجارة التوابل من أيدي العرب تَنْهار القاهرة ومكة إلى الأبد » .

وكان كولمبس مكتشف أمريكا يحترق بلهب الطموح الدينيّ ويتحرّق شوقًا للوصول إلى الهند عَلَّهُ يقع على ثروة من الذهب تكفي لتجريد حملة صليبية جديدة بعد أن قضت مصر على كل أمل في نجاح الحملات الصليبية السابقة .

وإذا استبعدنا تلك النزعات الدينية الكريهة ، وما اتَّصَفَت به القرون الوسطى الأوربية من تَعَصُّب ذميم ، فإننا لا نستطيع إلا أن ننظر بعين التقدير إلى بطولة هؤلاء الرواد الأوائل ، وما كانوا عليه من شجاعة القلب وصلابة الإرادة ، وهم يُقْبِلون على خوض غمار المحيطات العاتية ويَتَّجِهون إلى آفاق مجهولة لا عهد للإنسان بها من قبل ، مستعينين في رحلاتهم بالنذر اليسير من المعارف الجغرافية والفلكية ، محطمين مخاوف القرون الماضية ، وما ساد فيها من معتقدات خاطئة عن شكل الأرض وحدودها وما يكمن في بحارها من رُعب ومفاجآت .

لقد استطاع هؤلاء الرواد أن يقتحموا الصعوبات ويخترقوا حُجُب المجهول ليصنعوا بما حَقَّقُوه من معجزات بداية التحول من ظلام العصور الوسطى إلى عصر الحضارة الحديثة ، وفتحوا لبلادهم كنوز الأرض البكر واكتشفوا قارات كانت تائهة في ظلمات البحار .
كانت البرتغال أسبق دول أوربا في هذا المجال فقد استطاع "فاسكودا جاما " أن يدور حول أفريقيا ويكتشف الطريق إلى الهند مَارًّا برأس الرجال الصالح ، ولم تَمْض غير أعوام قليلة حتى أصبحت أصغر دولة أوربية تبسط سلطانها على مساحات أوسع من الإمبراطورية الرومانية في عَظَمتها الغابرة .

وخشيت البرتغال أن تَلْحَق بها دول أخرى ، فَسَعَت إلى البابا ليمنحها مرسومًا يقضي بتَمليك البرتغال جميع القارات والبحار والجزر التي يكتشفها البرتغاليون في الطريق إلى الهند ، وأقرّ هذا المرسوم ثلاثة بابوات آخرون ، وافقوا على تلك الهبة العجيبة التي تمنح البرتغال الشرق المجهول بأرضه وثرواته وسكانه .

فلما نَشَطت أسبانيا في مجال البحث عن جزر التوابل كان عليها أَن تَسْلُك طريقًا آخر غير طريق البرتغال ، ومن ثَمَّ تَبَنَّتْ مشروع كروستوفر كولمبس للوصول إلى الهند بطريق الإبحار غربًا .

وقد استطاع « كولمبس » أن يعبر المحيط الأطلنطيّ مُتَّجِهًا إلى الغرب حتى وَصَل إلى اليابسة ، واكتشف دُنيا جديدة عُرِفت فيما بعد باسم أمريكا، ولكنه ظل حتى آخر لحظة من حياته يُؤَكِّد أَنَّه نزل في أرض آسيا وأنه إذا واصَل السّير غربًا فسوف يبلغ نهر الكنج ببلاد الهند .

وهذا ما أثار الخوف عند البرتغال ، حيث بَات مرسوم البابا عديم القيمة مادام الوصول إلى الهند أصبح ممكنا عبر الطريق الغربيّ ، وهمَّت إلى السلاح تدافع عن حقوقها في الهند ، ولكن البابا تدخل في النزاع وقسم العالم مناصفة بين ملك أسبانيا وملك البرتغال ، فشطر الكرة الأرضية شطرين متساويين بالمرسوم الصادر في مايو سنة ١٤٩٣، بحيث تكون جميع البلاد الواقعة غرب الجُزُر الخضراء ملكًا لأسبانيا ، وجميع البلاد الواقعة في شرقها مَلِكًا للبرتغال .
ولكن أين تقع جُزُر التوابل..؟!.. أهي في غرب خط التقسيم فتكون من نصيب أسبانيا، أم في شرقه فتكون من نصيب البرتغال ؟ -لم يكن أحد يعلم إجابة هذا السؤال سواء في ذلك البابا أو الملوك أو عامة الشعب ، وكان هناك رجل واحد يعلم علم اليقين أنه سواء اتجهت من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق فسوف تصل إلى نفس المكان ؛ لأن الأرض كروية ، كان هذا الرجل هو « فرديناند دي ماجلان » ، وهو مُناضل صَبُور يحب العمل في صمت وإصرار ، ويتمتع بإرادة من حديد ومَقْدرة فائقة على مُجَابهة المخاطر والمفاجآت .

كان ماجِلّان واحدًا من فرسان « سَانْتَ يَاجُو » يعمل في خدمة البلاط الملكيّ البرتغاليّ ، عُرِف باهتمامه البالغ بشئون الملاحة وشغفه بقراءة الكتب الجغرافية والرحلات ، والاطلاع على الخرائط ، خرج إلى الهند سنة ١٥٠٥م ضِمن الحملة التي قَادَها « فرانسيسكو » لتنفيذ خطة استعمارية تقضي بتدمير جميع مراكز التجارة في طريق الهند وإنشاء مراكز برتغالية في مكانها ، والسيطرة على جميع المضايق من جبل طارق إلى سنغافورة ، وإغلاق البحر الأحمر والخليج الفارسيّ والمحيط الهنديّ أمام التُّجَّار العرب .
وعاد « ماجلان » إلى وطنه بعد سبعة أعوام قضاها في توطيد إمبراطورية البرتغال على بلاد الهند ، وكان يظن أنه سيحصل على تَرْقية مُناسبة من الملك على قَدْر ما بذل من تضحيات ، ولكنه فُوجئ برَفْض مَطْلبه ، وظل خامل الذكر عامًا كاملا حتى نظم الملك في سنة ١٥١٣ حملة لمحاربة مراكش فالتحق بها « ماجلان » ، حيث لاَحَقَهُ الحظ السَّيء هناك إذ أَصَابته طَعْنَةُ رُمح في ركبته سببت له العرج المستديم ، وأصبح غير صالح للخدمة

العسكرية ، فعاد يلتمس من الملك مكافأته ولكن الملك لم يَعُد بحاجة إليه فرفض أن يزيد مُرتَّبه نصف « دوكة » أي ما يساوي ثلاثين قرشا مصريًا فقد كان « مانويل » ملك البرتغال مشهورًا ببخله الشديد .
ثار ماجلان على هذه الإهانة ورحل عن البرتغال إلى أسبانيا يقدّم إلى الملك « شارل» خدماته ، ويعرض عليه مشروعه للوصول إلى الهند عن طريق الإبحار غربًا بعيدًا عن منطقة نفوذ البرتغال .
وَسَاعَدَهُ الحظ هذه المرة ولكن بعد تردد طويل من جانب الملك وبعد عقبات ومؤامرات أوشكت أن تقضي على المشروع .
وفي ١٠ أغسطس سنة ١٥١٩م أقلعت خمس سُفن من مَرفأ أشبلية عليها مائتان وسبعون بَحّارًا من مختلف الجنسيات الأوربية ، محملة بكميات كبيرة من الطعام والشراب ، وكثير من السلع الأوربية لاستبدالها بِسِلع الشرق .

وقد أخفى « ماجلان » خطته عن ضباط الحملة ، ولم يكن بوسعه أن يكشف عنها ، فهي في حقيقة الأمر مُجَرّد احتمال وَضَعَهُ "مارْتِنْ بِيَهايِم" في خريطة سِرِّية يحملها « ماجلان » ، مبينًا عليها مضيقًا يخترق أمريكا الجنوبية ويوصل إلى محيط الظلمات أو ما يعرف حديثا باسم "الباسفيك" حيث تقع جزائر "ملقا" أو جزائر التوابل المشهورة التي يسعى إليها ماجلان .
وَصَلَ ماجلان إلى خط عرض ٤٨ جنوب خط الاستواء حيث تُشير الخريطة إلى وجود الممر ، ولكنه لم يجد شيئًا من هذا ، ومع ذلك لم يتراجع بل أخذ يتقدَّم بعناد في سيره نحو الجنوب يبحث عن منفذ على طول الساحل الشرقيّ لأمريكا الجنوبية حتى وصل إلى غايته ، وعبر المضيق الذي يعرف اليوم باسم "مضيق ماجلان" إلى المحيط الهادي ، وكان البَحَّارة قد أنهكتهم الرحلة المضنية وعصفت بهم الخلافات وحطَّمت المؤامرات معنوياتهم ، ومع ذلك ظل ماجلان يمخر عباب المحيط الغامض إلى حيث لم تَسْعَ سفينة للبشر من قبل .

ومرَّت مائة يوم أخرى في خضم العُبَاب ، وتحت سطوة الرياح والعواصف بعد أن نال منهم الجهد وفتكت بهم الأمراض وأضناهم الجوع ، فقد فَسَد الطعام ، وتعَفَّنَت المياه ، واضطروا إلى أكل الجلود ونشارة الخشب والفئران .

وكان البحارة في آخر رمق عندما شاهدوا معالم اليابسة في يوم ٢٦ مارس سنة ١٥٢١م ، وظن ماجلان أنه قد بَلَغ هدفه النهائيّ بالوصول إلى جزائر ملقا ، ولكنه تبيَّن أنها جزر أخرى سمّاها « سانت لازار » ثم أطلق عليها الأسبان بعد ذلك « جزر الفلبين » تخليدًا لاسم «فيليب الثاني » ملك أسبانيا .

هنا تبدأ مرحلة تَحَوُّل كبرى في تاريخ هذه الجزر فقد اتصلت لأوَّل مرة بأوربا ودخلت تحت الاحتلال الأسبانيّ بعد اكتشاف ماجلان لها ببضع سنين .

وكان ماجلان -باكتشافه للطريق الغربيّ ووصوله إلى جزر الفلبين- قد أتم رحلته وحَقَّق

نصره ، وما عليه إلا أن يستأنف العودة ليتلقى شكر الملك ، ولكن شعوره بالواجب أبى عليه إلا أن يواصل اكتشاف جميع الجزر ويوطد فيها سلطة أسبانيا .
ولما كان عدد رجاله الذين نقصوا كثيرا أثناء الرحلة لا يسمح بترك فريق منهم في الجزر كمندوبين أو وكلاء – فإنه أراد أن يعقد معاهدات مع أقوى الزعماء ويرفع علم أسبانيا على بقية الجُزُر، ومن ثَمَّ اتجه إلى جزيرة « سِيبُو » لتحقيق هذا الغرض .

وَقَبِل « هومابون » أمير سيبو أن يكون حليفًا للأسبان وأن يدخل المسيحية ، وكانت خطة « ماجلان » في مُقابل ذلك أن يجعل منه ملكًا على جميع الجزر وأمرائها ، ويخضع له كل زعيم متمرد ، وشاءت الظروف أن تعطيه الفرصة المناسبة ، فقد رفض « لاَبُولاَبُو » أمير جزيرة « مكْتَان » – وهي جزيرة صغيرة في مواجهة سيبو – أن يخضع لهومابون ، ويقال أنه كان مُسْلمًا شديد الإعتزاز بكرامته ، فلم يقتصر على الرفض، بل ذهب يحرض أصحاب الجزر الأخرى ويمنعهم من أمداد ضيوف هومابون بالمواد الغذائية ، وكان لهذا العَدَاء الذي أبداه "لابولابو" تجاه الأَسْبان ما يبرره ، فقد اندفع بحّارة ماجلان وراء نساء الجزيرة بعد حرمانهم الطويل ، وأَدَّى ذلك إلى اشتباكات بينهم وبين الأهالي فأضرموا النيران في أكواخهم بعد أن نَهَبُوا كل ما يملكون .
عرض ماجلان على هومابون أن يُلَقِّن خَصْمه دَرْسًا لكي يدين له بالطاعة ، ولم يُعرف عن ماجلان من قبل أنه يميل إلى سَفْك الدماء بغير مُبَرّر ، كما لم يعرف عنه الاندفاع أو التهور ، ولكن عقدته تجاه المسلمين والعاهة التي خلفتها حرب مراكش في ساقه العرجاء كانت نقطة الضعف التي سَاقَتْهُ إلى حتفه ، حيث لقي مصرعه على يد الأمير البدائيّ « لابولابو » .

ولم يستطع الأسبان الحصول على جثته ، فقد رفض « لابولابو » تسليمها إليهم ، وهكذا اختفى إلى الأبد ذلك الرجل الذي انتزع من المحيط سِرّه الغامض ، في مغامرة صغيرة لم يكن أحد يقدِّرُ لها أن تنتهي هذه النهاية الدرامية .. اختفى ماجلان ولم يبق منه سوى شاهد قبره في « جزيرة سيبو » يحكي قِصَّته للتاريخ .

الاحتلال الأسباني

تَوالت الحَملات الاستكشافية من أسبانيا إلى الفلبين ، ولكن لم يبدأ غزوها الحقيقيّ واحتلالها إلا بعد ٤٦ سنة من اكتشاف ماجلان للجُزُر ، فقد جَرَّد الأسبان حملة عسكرية بقيادة « مِيجل لوبيْز ليَجازْبي » وهو ضابط أسبانيّ الأصل عاش بالمكسيك، ووصلت الحملة إلى جزيرة « سيبو » في إبريل سنة ١٥٦٥م حيث أنشأ ليجازبي مدينة « سيبو » وشيَّد بها

قلعة حصينة لإقامة الجنود .

وحضر مع هذه الحملة خمسة من الرهبان الأوغسطينيين بدأوا التبشير للكاثوليكية ، فقد كانت أسبانيا في ذلك العصر تعتبر نفسها حامية حِمَى المسيحية وصاحبة رسالة خاصة لنشر الكاثوليكية في العالم ، ولعل هذا ما جعلها تتمسك باحتلال الفلبين ، حتى بعد أن تحقق المستعمرون الأوائل من عدم وجود التوابل أو الذهب في أرضها .

وجد ليجازبي أن « سيبو » وحدها لا تكفى لتزويد رجاله بالمواد الغذائية فَوَجَّه حملة تجاه جزيرة « بَانَاي » ، ثم توالت بعد ذلك الحملات إلى جزيرة "لوزون" بقيادة «مَارتن جُويْني» و « جوان سالسيدو » حفيد ليجازبى.. واستطاع ليجازبي أن يستولي على مملكة « راجا سليمان » وعاصمتها مدينة « مانيلا » ، وجعل مقر حكومته «إنترامورس » أو المدينة المسورة وكانت مدينة بداخل « مانيلا » ، ومن هناك خرجت حملات أخرى لمد سلطان أسبانيا على جزيرة لوزون بأكملها .

كانت السنوات الأولى من عهد الاحتلال الأسبانيّ فترة قلق واضطراب نتيجة للتهديد المستمر من جانب البرتغاليين ثم الهولنديين واليابانيين ومن جانب الفلبينيين أَنفسهم .

فقد بذل البرتغاليون عدَّة محاولات لطرد « ليجازبي » من « سيبو » فلما تَوَحَّدت البرتغال وأسبانيا تحت التاج الأسبانيّ ، بدأ التهديد يأتي من جانب الهولنديين الذين اجتاحوا « لوزون » عدة مرات ولكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها .

وفي سنة ١٥٧٤م اقتحم خليج « مانيلا » قرصان صينيّ يُدعى « ليما هُونْج » على رأس حملة كبيرة من أربعة آلاف رجل ، ولكنه لم يتمكَّن من دخول « مانيلا » ، فعاود الكرة مرات حتى يئس من إزاحة الأسبان فتراجع هاربًا إلى بحر الصين .

وخشى الأسبان من ثورة الصينيين المقيمين في مانيلا ، فحددوا لهم في سنة ١٥٧٩ منطقة خاصة لإقامة مساكنهم وحوانيتهم باسْمِ « بَاريان » وكان يقع في محاذاة نهر "باسيج" حول الموقع الذي يشغله اليوم مبنى البنك المركزيّ . ولم يمض أكثر من عامين حتى شبت الحرائق في مساكن الصينيين وحوانيتهم ودمّرت « الباريان » عن آخره .

وأقام الصِّينيون « بَارْيَان » آخر في مواجهة الموقع الذي يشغله اليوم مبنى البريد ، وسرعان ما دبّت فيه الحياة وأصبح مزدهرًا بمتاجره وحوانيته ومطاعمه الفاخرة ، حتى أن الأسقف « دومنجو سَالاَزَارْ » كتب إلى ملك أسبانيا سنة ١٥٩٠ يقول له : "إن مدينة مانيلا تزدهي بهذا الباريان ، حتى أنني أستطيع أن أجزم لجلالتكم أنه لا يوجد في مدينة أسبانية أو في أي مكان آخر من العالم شيء يستحق التفرج عليه مثل هذا المكان " .

غير أن نمو السيطرة الاقتصادية للصينيين كان مثار إزعاج مستمر للسلطات الأسبانية ،

فكانت تعمد إلى فرض الضرائب الباهظة عليهم ، وتأخذ منهم إتاوات وتعاملهم بقسوة ، مما أدى إلى عدة مصادمات بين الأسبان وبينهم : ففي سنة ١٦٠٣ قام الصينيون بثورة مسلحة وأضرموا النار في المباني واعتدوا على حي «كِيابو» وحي « تِنْدُو » وأحدثوا فيهما تخريبًا شديدًا ، وكان رد الفعل أن دبر الأسبان لهم مذبحة رهيبة راح ضحيتها ٢٤ ألف صينيّ ، فهدأت الثورة لتعود من جديد مرة بعد أخرى ثم تنتهي بالقمع والضحايا .

وقد جَلَب تدمير هذه الطائفة على تجارة الأسبان كارثة مُحَقَّقة ، فقد كانوا إلى جانب اشتغالهم بفنون التجارة ومهارتهم فيها – متخصصين في حِرَف أخرى كالنجارة وإصلاح السفن وغير ذلك من الحرف التي لا غنى للتجارة عنها ، مما جعل الأسبان يستدركون خطأهم ويبعثون إلى « كانتون » في استقدام الصينيين إلى الفلبين .

وكان لليابانيين جالية تقيم في حي « بَاكْو » بمانيلا كما كانت لهم جاليات أخرى تعيش في « سان مِيجل » بمحافظة « بُولكَانَ » وفي مناطق أخرى، ولم تكن تجربة الأسبان معهم أقل صعوبة من تجربتهم مع الصينيين ، فقد ثار اليابانيون عدة مرات واشتركوا في ثورات الفلبين أكثر من مرة خلال عهد الاحتلال الأسبانيّ .

ولكن الثورات الفلبينية لم تكن تتسم بطابع الوحدة الوطنية ذلك لأن الشعور القوميّ لم يكن قد بلغ نُمُوَّه الكافي بين سكان الجُزُر ، ومن ثَمَّ ظلت هذه الثورات محصورة في نطاق العصيان الإقليميّ أو الطائفيّ مما سهّل القضاء عليها دائمًا .

أخذ الأسبان يُوطدون سلطانهم في البلاد وينشرون المسيحية في أرجائها حتى دَانَت لهم جميع الجزر فيما عدا جزيرة مِنْدَنَاو وأرخبيل صُولو بجنوب الفلبين ، فقد ظَلَّت قلعة حصينة في قبضة أهلها المسلمين ، وبَقيت شوكة في ظهورهم حتى آخر لحظة في حياة الاستعمار الأسبانيّ الذي استمر قرابة ثلاثة قرون ونصف .

استطاعت الكنيسة الكاثولكية أن تحقق نجاحًا ضئيلًا بين قبائل «الأفوجَاوْ» وغيرهم من قبائل الجبال في شمال لوزون ، كذلك الحال بالنسبة لرؤساء القبائل والأشراف الذين دخلوا الدِّين الجديد من غير فهم أو إيمان ، ولكنها تَمَكَّنت عن طريق تعليم الأطفال في مدارسها التبشيرية، وعن طريق اكتساب النساء للمسيحية أن تحقق الشيء الكثير .

وكان دور النِّساء في تَقْريب المسيحية إلى الفلبينيين وفي تقبلهم للأوضاع الاستعمارية دورًا ملحوظًا، فالمرأة الفلبينية كان لها التأثير البالغ على البراعم الصغيرة من أبناء الفلبين ، أما المرأة الأسبانية فكانت لها فتنة آسرة أخضعت قلوب الرجال من أهل الجُزُر .

ساعد على شيُوع المسيحية بين سكان الجُزُر انتشار فكرة بدائية مؤدّاها أن عملية التعميد تَشْفي من الأمراض ، وكانت هذه الفكرة تلائم عقلية شعب متخلف يؤمن أفراده بالسحر وبتأثير الكلمات في قوى الطبيعة ، ولم يحاول المُبَشِّرون نفي هذه الفكرة بل روَّجوا لها بين

الوطنيين ، ولا يزال كثير من الفلبينيين يغلب عليهم الاعتقاد بأن أداء الشعائر الدينية والتقرب إلى القديسين وتقديم النُّذور لهم ، من شأنه أن يذلّل الصعوبات ويقضي الحاجات ويشفي الأمراض ، وحتى اليوم ما تزال لكل قرية أو مدينة في الجزر عيدها السَّنوي تحتفل فيه بقديسها الموكَّل بحمايتها وتُقيم له المهرجانات والزينات .

وانتشر استخدام اللغة الأسبانية مع تعليم الإنجيل ، وأخذ الفلبينيون يقلدون الأسبان في ملابسهم خاصة في المناسبات والأعياد ، واعتادوا الطعام الأوربيّ كما اقتنوا الأثاث والمفروشات الأسبانية ، وتأثّروا بعادات أهل الغرب وتقاليده .

فقد استخدمت الأسماء الأسبانية في التسمية ، وأصبح المثل الأعلى لرجل المجتمع هو « الإلوسترادو » ILUSTRADO أو ما يعرف عند الانجليز باسم « الجنتلمان » .
وأقيمت الكنائس في العاصمة وفي مدن الأقاليم وانتشرت الأبرشيات . وكانت الكنيسة في ذلك العهد تُبنى بحيث تطلُّ على ميدان PLAZA فسيح تَـحُفُّ به مساكن رجال الدين والمباني الرسمية ، وأصبحت هذه الميادين بمرور الوقت مراكز للنشاط السياسيّ والتجاريّ في المدن .

أما من الناحية الاقتصادية ، فقد ظل الفلبينيون يعتمدون بصفة أساسية على حرفتين قديمتين هما الزراعة والصيد ، وقد سَاهَم القسس في تقدّم الزراعة حيث جلبوا معهم من أمريكا اللاتينية زراعة البطاطا والطباق والذرة وغير ذلك من محاصيل وفاكهة المنطقة الاستوائية كالأفوكادو Avocado ، وشجَّعُوا على تعميم الري للحصول على فائض من الأرز لاستخدامه في تنمية المجتمعات الريفية .

وتحوَّلت زراعة قصب السكر إلى محصول اقتصاديّ ، لا يُستهلك جميعه في داخل البلاد ، وأصبحت الفلبين في أخريات العهد الأسبانيّ من أهم مراكز تصدير السكر في العالم ، كذلك سَاعد القُسُس على تنمية زراعة جوز الهند كمحصول اقتصاديّ ، فقد كانوا يعملون إلى جوار مهنتهم التبشيرية أخصائيين في الزراعة .

وكان الأسبان يطمعون أن يجدوا التوابل بجُزُر الفلبين ، فلما لم يتحقق لهم هذا الحلم أخذوا يبحثون في إمكانية زراعة جوز الطيب والفلفل زراعة اقتصادية ، ولكن عزَّ عليهم ذلك أيضًا ، فقد أغلق مسلمو الفلبين في وجوههم أرض جزيرة مندناو ، وهي المنطقة الوحيدة التي كانت تصلح لمثل هذه الزراعة .

وكان القطن هو المحصول الوحيد الذي تدهورت زراعته في الجزر ، نتيجة لميل الأسبان إلى استيراد الأقمشة الجاهزة من صناعة الهند والصين .

وقد استفادت بهذا التَّحول الاقتصاديّ الكبير طبقات معينة منها : رُؤساء العشائر والنبلاء الفلبينيون ، ومنها القُسُس الأسبانيون ، واستطاع هؤلاء أن يكونوا لأنفسهم إقطاعيات كبيرة

وأن يدعموا ثروات أسرهم في عهد الاحتلال وبرعايته ، فقد خلع ملك أسبانيا الهبات السخية على أفراد هذه الطبقات ليضمن ولاءهم للإمبراطورية .
وظهر إلى جانب هؤلاء طبقة إقطاعية أخرى بعضها من الوطنيين من غير النبلاء والسلاطين ، وبعضها من « المِسْتِيزو » ، وهم خليط من الدماء الأسبانية والدماء الوطنية .

وعرف أعضاء هذه الطبقات جميعًا باسم « الكاسيك » Cacique ، وكانوا وبالًا على شعب الفلبين وعونًا للأجنبيّ عليه ، وأداة لاستغلال الفلاحين الذين هم عامة الشعب وغالبيته العظمى ، وهكذا تحول السواد الأعظم من أبناء البلاد إلى مجرد أُجَرَاء في الأرض مصيرهم مرتبط بالعمل وبالأرض وكلاهما في قبضة الكاسيك .

وإلى جانب الطبقات الإقطاعية ظهرت طبقة جديدة أخرى بعضها من المستيزو وأكثرها من الأسبان الخالصين ، اتجهت عنايتهم إلى التجارة الخارجية ، فكانوا يجلبون الحرير والخزف من الصِّين ، والمجوهرات من بورما والهند ، والتوابل من جزر لهند الشرقية ، وخشب الكافور من فورموزا ، والعاج من كمبوديا .

وأصبحت « مانيلا » مركزًا لهذه التجارة الرائجة ، ومن هناك كانت السفن محمَّلة بسلع الشرق وتعبر الباسفيك حتى ترسو في « أكابولكو » عند أسفل ساحل المكسيك الغربيّ ، حيث تفرِّغ حمولتها ثم تعود محملة بالفضة والدولارات .

وكانت السفن تتعرض في رحلتها للعواصف المهلكة ولمفاجآت القراصنة من أمثال «السيرفرانسيس دِريك » الانجليزيّ ، الذي منحته ملكة بريطانيا لقب « سير » على أعمال القرصنة التي قام بهد ضد الإمبراطورية الأسبانية ، لذلك كان التجار في مانيلا يضعون أيديهم على قلوبهم فلا يهدأ بالهم حتى تعود السفن سالمة حاملة معها الأرباح .
وقد ظلت المكسيك حلقة الاتصال بين أسبانيا والفلبين حتى استقلت سنة ١٨١٩ ، فأصبحت السُّفن تتجه من الفلبين إلى أسبانيا مباشرة .
ومن أغرب الأمور أن الأسبان ظلوا أكثر من قرنين من الزمان يجوبون المحيط من جزر الفلبين إلى المكسيك ذهابًا وإيابًا دون أن يكتشفوا جزر هاواي .

إنـهيار الإمبراطورية الأسبانية

بدأت الإمبراطورية الأسبانية تنهار خلال القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر لأسباب تاريخية كثيرة منها فساد الحكم وطغيان الكنيسة الكاثوليكية ، وظهور منافسين أشداء في المجال الاستعماريّ ، إذ بدأت بريطانيا تنازع أسبانيا وتسعى للقضاء على نفوذها في الشرق ، واستطاعت بالفعل أن تحتل « مانيلا » لمدة عامين من سنة ١٧٦٢ إلى سنة ١٧٦٤ .

كانت الكنيسة الكاثوليكية في الفلبين تملك إقطاعيات واسعة من الأرض ، مما أدَّى إلى تركُّز ثروات طائلة في أيدي رجال الكنيسة ، واستفحال سلطاتهم في الأقاليم حتى أصبحوا هم الحكام الحقيقيين ، واستطاعوا من هذه المراكز أن يستغلوا الفلاحين ويسخّروهم فتحولوا من حماة للشعب إلى عبء عليه وَسْوط عذاب .

وقد حاولت سلطات الاحتلال العسكرية – بإزاء هذه المنافسة – استئصال شأفة القسس حتى لا ينازعونها في السيطرة على الأقاليم ، إلا أن القوة التي كان القسس يستندون إليها جعلت هذه المحاولة مستحيلة التحقيق .
وصَاحَبَ هذه الأوضاع ظهور تَحَوُّلات جديدة في بيئة المجتمع الفلبينيّ نفسه نتيجة للازدهار الاقتصاديّ ، وهبوط الثراء المفاجئ على التجار وأصحاب العقارات ، خاصة بعد انتهاء السياسة الاحتكارية للأسبان ، وفتح ميناء مانيلا للتجارة العالمية ابتداءً من سنة ١٨٣٧ ، فقد أصبح لكتان مانيلا شهرة عالمية لا تضارع ، كما أصابت الثروة بعض الزراع من تجارة البُنّ وتصدير السكر ، واستطاعت الأُسر المحظوظة أن تبعث بأبنائها يتعلمون في الخارج .

وفي أوربا تأثَّر الشُّبَّان الفلبينيون بالأفكار التحررية وبالنهضة العملية التي ازدهرت في القرن التاسع عشر ، وأيقظت الصحافة وقراءة الآداب المختلفة حب الاستطلاع بين المتعلمين وأصبحت الكتب في متناول الأيدي وبأسعار معقولة ، وأخذت الفنون في الازدهار.

ولما عاد الشبان المثقفون من الخارج تولَّوْا قيادة الجيل الجديد من أجل التغيير ، وبدأت حركة فكرية جديدة تولَّى زمامها رجال أفذاذ من أمثال "هوسي ريسال" Joze Rizal و مابيني Mabini وباردو دي تافيرا Pardo De Tavera ، وليون ما. جاريرو Leon Ma. Guarrero والأخويْن "لونا" Luna ، وكثير غيرهم من كبار المثقفين

وقادة الفكر السياسيّ ، واستعار هؤلاء القادة من أوربا أفكار المنظمات التي كانت تهدف إلى تقليم أظافر الكنيسة ، كذلك عرفوا الجمعيات السرية ، وأخذوا ينشرون بين المواطنين الأفكار الجديدة عن الحرية الشخصية والحقوق الديمقراطية.

وبدلًا من أن تلائم السلطات الأسبانية نفسها مع التغييرات والأفكار الجديدة فتحاول الإصلاح – كان رد الفعل من جانبها هو القمع والمطاردة.
وهكذا أخذت الثورات تتحرك في الجزر متخذة طابعًا جديدًا يحمل معنى التصميم على مقاومة القوى الأجنبية الدخيلة وتحرير الوطن .

دفع السُّخْط بعض القوات الفلبينية في كافيتي إلى عصيان مسلح ، ولكنها كانت ثورة تفتقر إلى التنظيم ، مما يسّر على السلطات الأسبانية القضاء عليها بسرعة ، وحكم بالإعدام على بعض المتمردين وأُلقي القبض على عدد كبير من المدنيين .

الثورة الفلبينية

وفي سنة ١٨٩٢ قام "أندري يونيفاشيو" Andres Bonefacio وزملاؤه بتأسيس جمهورية سرية من الثوريين تحت اسم كاتيبونان Katibunan ، وقضى أربعة أعوام يجمع لها الأنصار بعيدا عن أعين السلطات ، ويُصدر النشرات الثورية ، ولكن اكتُشِفَ أمرها مبكرًا فبدأت عمليات الإرهاب ، واضطر بونيفاشيو ورفاقة للفرار إلى الأقاليم حيث أخذوا يجمعون شملهم من جديد ويعبئون للثورة . وفي أغسطس سنة ١٨٩٦ بدأت الثورة المسلحة من إليكوس وكافيتي وباتنجاس ، وانضم إلى الثوار رفاقهم في سيبو .

كانت ثورة شعبية منظمة عبّرت فيها الجماهير عن إرادتها الواعية في الحرية والاستقلال ، وجاء وقتها مناسبًا للتطور الذي حدث في الفلبين نتيجة لظروف تاريخية عديدة نمى فيها الشعور القوميّ وتبلور وأصبح قادرًا على تحمل تبعات النضال .
ويكاد المُؤَرِّخون الفلبينيون يجمعون على اعتبار العوامل التالية من الأسباب الرئيسية لنمو الشعور القوميّ الذي مهد لقيام الثورة :
أولاً : فتح موانئ الفلبين للتجارة الخارجية وما تبعه من ازدهار اقتصاديّ .

ثانيًا : ظهور الطبقة الوسطى التي خرج منها قادة الحركة الإصلاحية في البلاد .

ثالثًا : فتح قناة السويس الذي ترتب عليه تقوية الاتصال بين الفلبين من ناحية وبين أسبانيا ودول الغرب من ناحية أخرى ، مما يَسَّر دخول الأفكار الجديدة التي كانت تموج بها أوربا في ذلك الوقت .

رابعًا : إعدام القسس الفلبينيين الثلاثة « جوميس ، وبرجوسي ، وزامورا، لمجرد أنهم طالبوا بمساواتهم بالقسس الأجانب ، فقد أَلْهَب هذا الحادث الشعور الوطنيّ وفَجَّر طاقات كبيرة من الغضب الشعبيّ ضد الأسبان .

خامسًا : قيام جمعية الصداقة الفلبينية الأسبانية التي كانت تهدف إلى كسب الرأي العام في مدريد لصالح القضية الفلبينية .

سادسًا : التعاون الوثيق بين المثقفين الفلبينيين في الدفاع عن قضية البلاد من أمثال : هُوسِي ريسَال ، وجراشيانو لوبيز جاينا ، ومارسيليو ديلبيلار ، وهوسي بانجانيبان ، وماريانو بونسي ، فقد استطاعوا من خلال صحيفتهم « لاسوليدا ريداد » أن يلفتوا أنظار الأحرار في أسبانيا إلى الأوضاع الأليمة لشعب الفلبين تحت حكم الاستعمار الأسبانيّ .

سابعًا : إنشاء المنظمة الثورية « كاتيبونان » بزعامة بونيفاشيو ، والتي وجدت فيها الوطنية الفلبينية أقوى تعبير عن نفسها .
وقد نبتت فكرة هذه المنظمة في رأس بونيفاشيو في وقت مبكر قبل عام ١٨٩٢ ، ولكن الحوادث التي جرت في البلاد بعد ذلك جعلت بونيفاشيو يحدد موقفه بوضوح ويبدأ العمل المنظم في سبيل الثورة .

كان بونيفاشبو واحدًا من الشُبَّان المعجبين بشخصية « هوسي ريسال » الساحرة ، وكان شديد الحساسية قوي الشعور ، فتأثر أبلغ الأثر بكتابات ريسال وأشعاره وأفكاره القومية .
وفي ٢٦ يوليو سنة ١٨٩٢ كان بونيفاشيو موجودًا بمنزل أحد أعضاء منظمة « لاليجا فلبينا » بشارع «إلايا » بحي « تندو » بمانيلا ، عندما ألقى ريسال خطابًا حماسيا ملتهبا ملك على بونيفاشبو حواسه وعقله .

ولكن ألقي القبض على ريسال وقُبِض على الكثيرين من أعضاء المنظمة، حيث عُذِّبوا عذابًا أليمًا . وأوشك بونيفاشيو على اليأس بعد أن تَقَلَّصت المنظمة وتلاشت ، وزاد يأسه حينما علم أن مستشاره وصديقه « ديلبيلار» قد توفى في برشلونه .

غير أن « بونيفاشيو » سرعان ما استعاد نفسه ونفض عنها الهموم ونهض يُخَطِّط للثورة ، وفي إبريل سنة١٨٩٥ اجتمع بمجموعة صغيرة من أصدقائه في كهف حصين بجبل « مونتالبان » ، وأعلنوا تصميمهم على العمل لتحرير الفلبين ، وكتب بونيفاشيو – تخليدًا لذكرى ذلك اليوم – على جدران الكهف المظلم عبارة « عاش استقلال الفلبين » .

وكان هذا العمل آنذاك يعتبر مجرد انفجار عاطفي مثالي فقد كان أعضاء المنظمة نفرًا قليلًا ، غير أن الفكرة ما لبثت أن انتشرت بين الناس كالنار في الهشيم حتى أصبح أعضاء المنظمة التحريرية « كاتبيونان » يعدون بالمئات بل بالألوف .

ولسوء الحظ اكْتُشِفَ أمر المنظمة مبكرًا في ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٦ بواسطة خائن من أعضائها ، وكان بونيفاشيو قد اتفق مع أعضاء المنظمة أن يبدأوا الثورة العلنية بمجرد انكشاف أمرها ، وأن تبدأ الثورة في مدينة « مالابون » بمحافظة كافيتي ، وقد وافق ذلك ليلة عيد القديس بارتلميو في ٢٩ أغسطس سنة ١٨٩٦ .

ولكن في ذلك اليوم حدث ما لم يكن في الحسبان فقد حضر إلى بونيفاشيو جماعة من الكشافة يقدمون للزعيم رجاء بعض أهالي المدينة لتأجيل الثورة ؛ لأن كثيرًا من الجنود الفلبينيين الذين يعملون تحت القيادة الأسبانية لم يتمكنوا من الحصول على أسلحتهم بعد ، فاغتاظ بونيفاشيو من هذا الجُبْن ، وفي ثورة غضب عارمة اعتلى منصه أمام الجماهير وألقى فيهم خطابًا ملتهبًا ، ثم تناول شهادة ضريبة الرؤوس «سِدْيولا » – وكانت ضريبة مُذِلَّة يفرضها الأسبان على الأهالي – فمزقها وألقى بها تحت قدميه إعلانًا للعصيان ، وتابعه في ذلك الجماهير فأخرجوا إيصالات ضريبة السديولا ومزقوها وألقوا بها تحت أقدامهم فملأت أرض الميدان الكبير ، وأمر الزعيم جنوده بالتقدم إلى « دولونج كالسادا » ليلتقوا بزملاء لهم هناك ، وكانوا يحملون المشاعل في حشود هائلة فلما شاهدهم الأسبان تراجعوا زعرًا وفرّوا من أمامهم .

وفي الصباح بدأت معركة تاريخية بين الأسبان من ناحية وبين بونيفاشيو وجنوده من ناحية أخرى أبلى فيها « الكاتيبونان » بلاءً حسنًا ، ولكن الأسبان كانوا متفوقين عليهم في الأسلحة الثقيلة ، فأمر بونيفاشيو جنود الكاتيبونان بالتقهقر إلى « ماندا لوينج » ومن هناك اتجهوا صوب « سان جوان ديلمونتي » حيث هاجموا مخازن الأسلحة واستولوا عليها ، وجاءت قوات الجيش الأسبانيّ لتلتحم بالثوار فأصيبت بهزيمة منكرة في « بينا جَلابانان » .
ودخل الثوار « سان جوان ديلمونتي » والمدن الأُخرى المجاورة وهم يحملون علم الفلبين الجديد وينشدون نشيدهم الوطنيّ الذي وَضَعَه «هوليوناكبيل » Julio Nakpil .

وكان هذا أول انتصار يحققه الوطنيون الفلبينيون على القوات الأسبانية ، وكادت الثورة أن تنجح لولا أن طرأ عليها الصراع الداخلي فأوهَى من قوتها ، واستطاع الأسبان أن يعزلوا قائدها في مغارة مع بعض رفقائه ويقضوا عليهم .

وظنوا أنهم قد استطاعوا أن ينتصروا على الثورة بقتل زعيمها ، ونفي خَلَفَهُ الجنرال « أجوينالدو » ، ولكن فات الأسبان أن هذه الثورة لم تكن عاصفة هوجاء انتهت بموت الزعيم وفرار القادة أو استسلامهم، وإنما كانت في واقع الأمر حركة شعبية نامية ، يتقلب عليها المد والجزر ، وقد تتراجع موجاتها أو تنحسر ولكنها لا تموت ، وهذا ما حدث بالفعل ، فقد أخذ الشبان الثوريون ينظمون صفوفهم من جديد بينما كان "أجوينالدو" يشتري السلاح

بالمال الذي أخذه من الأسبان ويعد العدة لكي ينقض عليهم مرة أخرى .

كانت الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الأثناء قد فرغت من القضاء على نفوذ أسبانيا في أمريكا اللاتينية ، وها هي تتبعها في مستعمراتها الآسيوية للإجهاز على بقايا إمبراطوريتها ، وقد صاحب هذا الاتجاه تغيير في السياسة الخارجية للولايات المتحدة فقد أصبحت دولة كبرى قوية ذات مطامع إمبريالية جعلتها تسعى إلى المشاركة في الأسلاب الاستعمارية ، وتنفض عن نفسها سياسة العزلة التي التزمت بها في الماضي ، وكان هذا التحول الجديد يخفي أغراضه الحقيقية التي ترمي إلى إقامة إمبراطورية أمريكية على أنقاض الامبراطوريات الأوربية القديمة ، ولكي تتقن الولايات المتحدة تمثيل دورها اكتسبت مظهر الدولة المنقذة التي تهدف إلى تحرير الشعوب المغلوبة على أمرها .

وفي هذا الثَّوْب البراق تقدم الكومودور « جورج ديوي » الضابط الأمريكيّ إلى الزعيم الفلبينيّ « أجويناldo » في منفاه بهونج كونج ، ووعده باستقلال الفلبين إذا ساعده الثوار في القضاء على القوات الأسبانية وطردها من البلاد .

وبناء على هذا الاتفاق تحرك ديوى بقواته البحرية نحو خليج مانيلا في مايو سنة ١٨٩٨ وعاد « أجويناldo » ورفقاؤه إلى الوطن على ظهر السفينة « ماكلوش » وبدأ فصل جديد في حياة الثورة الفلبينية .

تكفلت القوات الأمريكية بضرب القوات الأسبانية في مانيلا ، أما الثُّوار فقد اتجهت جهودهم إلى الأقاليم لتطهيرها من النفوذ الأسبانيّ ، واستطاعت قوات الثوار أن تسيطر على خمس عشرة محافظة وأن تنشئ جيشًا قوامه ثلاثين ألف جنديّ ، وأن تقيم لأول مرة في تاريخ الفلبين جمهورية فلبينية مستقلة في المحافظات التي خضعت لها .

وفي هذه الفترة لمع اسم « مابيني » Mabini فيلسوف الثورة وعقلها المدبر ، كان شابًا ألمعيًا موفور الذكاء ثاقب النظر ، يتمتع بعقلية ثورية نابضة ، لا تنقصها حكمة رجل الدولة المحنك . وهذه المواهب الفكرية والشخصية التي حَبَتْهُ بها الطبيعة عن سخاء كان يقابلها في حياته مأساة ، فقد أصيب « مابيني » في شرخ شبابه بمرض خطير نتج عنه شلل في ساقيه ، فظل حبيس مقعده طوال عمره .

غير أن هذا العجز الجسمانيّ لم يمنعه من أن يكون واحدًا من أبرز رجال الثورة ، بل أن يكون رئيسًا لمجلس وزراء جمهوريتها؛ فقد استطاع مابيني أن يطبع الحركة الثورية بطابعه في أخصب فترة من تاريخ الفلبين ، وقد سَمَتْ منزلة مابيني في نظر أبناء شعبه حتى أصبح بطلها الثاني بعد «هُوسِي رِيسَال » .

كان يتميّز عن غيره من زعماء الثورة أنه جاء من قلب الشعب الكادح ، فهو واحد من أبناء الفلاحين الفقراء ، كافحت أمه كفاحًا مُرًّا في سبيل تعليمه حتى تخرج من الجامعة ، ولم

ينس مابيني في يوم من الأيام الأوضاع الأليمة التي عانى منها الفلاح الفلبينيّ تحت وطأة الاحتلال ورجال الكنيسة وطغيان الإقطاع .

التقى مابيني لأول مرة بأجوينالدو سنة ١٨٩٨ لدى عودته من منفاه ، وكان مابيني معروفا بأنه رجل عمل بمقدار ما كان رجل فكر لذلك كلفه الثوار برئاسة مجلس وزراء الجمهورية الجديدة .
وكان أول همّه أن يسعى للحصول على اعتراف الدول الأجنبية بحكومة الثورة، فقد رأى بثاقب نظره أن الاتفاق الثنائيّ بين القوات الأمريكية وبين الثوار يمكن أن يتعرض لخديعة مفاجئة ، كما كان يخشى أن يحدث لقاء بين أسبانيا وأمريكا في غير صالح الفلبين .

لذلك كان مهتمًا بتوثيق العلاقات بين حكومة الجمهورية والدول الأجنبية الأخرى لإحداث نوع من توازن القوى بين الثوار وبين القوات الأمريكية ضمانًا لاحتمالات المستقبل .

ويذكر لنا المؤرخ الفلبينيّ "قيصر أديب مَاهُولْ" أستاذ التاريخ بجامعة الفلبين ، في كتابه "مابيني والثورة الفلبينية" أن مابيني كان مهتمًا بتوجيه الرأي العام العالميّ إلى قضية الفلبين وأنه كان يسعى للحصول على اعتراف الدول بحكومة الثورة وباستقلال الفلبين ، فلما بعث الفاتيكان الأب "برنار ديشو نورالدا" لبحث الأمر مع حكومة الثورة للإفراج عن ٤٠٠ أسبانيّ من بينهم المدنيين ورجال الدين ، رفض مابيني هذا الطلب وكتب إلى الفاتيكان يقول : « إنَّ الظلم الذي ارتُكِب ضد الفلبين في معاهدة باريس يدين الفاتيكان الذي يُبدى اهتمامه البالغ لمصير بعض الرهبان ، بينما يتجاهل مصالح ثمانية ملايين كاثوليكيّ فلبينيّ " .

وكانت اتفاقية باريس تقضي بأن تتنازل أسبانيا عن الفلبين في مقابل عشرين مليون بيزو ، أي ما يُساوي خمسة ملايين دولا أمريكيّ تقريبًا ، وكان في الاتفاقية جوانب سرية لم يشأ الطرفان الإعلان عنها ، ثم تكشفت نتائجها في مجرى الأحداث .
ويعلق الدكتور « أنتونيو مولينا » ، مؤلف كتاب « الفلبين عبر القرون » ، على خطاب مابيني إلى الفاتيكا قائلا : « لقد اعترض أجوينالدو على هذا الخطاب ؛ لأنه افتقد الأسلوب الدبلوماسيّ » وربما كانت هذه بداية الشقاق بين مابِيني وبين المحافظين من قادة الثورة ، وكان "مابيني" يتميز عن بقية الزعماء بما له من قدرة على الرؤية الواضحة إلى آفاق بعيدة ، كما كانت له حاسة سياسية مرهفة تلتقط اتجاهات الحوادث والأخطار قبل وقوعها بزمن كبير ، وكان يحدد موقفه بناء على حساب دقيق لتوقعات المستقبل واحتمالاته كما يراها ويزنها ، ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يتفق مع الآخرين الذين يبنون أحكامهم على أساس من تقدير الحوادث الراهنة فحسب دون اعتبار للمستقبل ، انتظارًا لما يستجد من أمور .

فقد تحقق كل ما كان مَابِيني يخشاه من جانب الولايات المتحدة ، وثبت أن الذين أحسنوا الظن بنواياها كانوا مخدوعين ؛ ففي ١٣ أغسطس سنة ١٨٩٨ سقطت مدينة مانيلا في

أيدي القوات الأمريكية ، وقد اندهش الفلبينيون لأنه لم تحدث أية معارك بين الأسبان والأمريكيين ، وإنما تبودلت بعض طلقات المدافع في الهواء ، ثم سُلِّمت المدينة على أثرها دون مقاومة ، وشعر الفلبينيون بأن في الأمر سرًا غريبًا.

و بالفعل .. لم تكن هذه المظاهرة التي مثَّلتها قوات الدولتين سوى جزءًا من الاتفاق السريّ بين أمريكا وأسبانيا ، فقد عقدت الولايات المتحدة عزمها على احتلال الفلبين والضرب بوعودها للثوار عرض الحائط .
وتحققت شكوك الثوار عندما هَمَّتْ قواتهم بدخول المدينة فمنعتها القوات الأمريكية وطلبت تأجيل ذلك حتى يتم تسليمها نهائيًا ، وأصر مابيني على رأيه بأنه لا يوجد أي سبب منطقيّ يحرم الفلبين من حقهم في دخول مانيلا.

وفي مساء ذلك اليوم نفسه بدأت قوات أمريكية مكونة من أربعة آلاف جنديّ تتحرش بالثُّوَّار فأرسل الجنرال الأمريكيّ « توماس أندرش » برقية عاجلة إلى أجويناالد ويقول فيها : « حدثت أزمة خطيرة بين قواتنا ، ينبغي ألا يقحم رجالك أنفسهم في المدينة .. حتى يتم تسليمها نهائيًا ثم نتفاوض معكم » .
وأحس مابيني أن ذكر كلمة التفاوض هذه تخفي وراءها معاني خطيرة؛ فقد كان يخشى أن تنتقل الفلبين من ملكية سيد إلى ملكية سيد آخر ، وأن يتمخض عمل الثورة الفلبينية عن استعمار جديد .

وكان مابيني قبل ذلك بستة أسابيع قد نصح لجمهورية الثورة أن تنقل مقرها من بَاكُورْ Bacoor إلى مالولس Malolos ، وذلك لأن مدينة مالولس كانت بعيدة عن مرمى المدفعية الأمريكية الرابضة في خليج مانيلا ، فقد كان يعتقد أن الاحتكاك بين الثوار وبين القوات الأمريكية أمر وشيك الوقوع .

وهاهو الظن قد أصبح واقعا ملموسًا ، وبدأ الصِّدام المسلح مع القوات الأمريكية ، وكان هذا الصدام هو الصخرة الأولى التي تحطمت عليها آمال الشعب في الحرية والاستقلال ، أما الصخرة الثانية فقد تمثلت في الصراع الداخليّ في جبهة الثوار التي انقسم زعماؤها إلى فريقين متعارضين :

ففي اجتماع المجلس النيابيّ لحكومة الثورة الذي انعقد في « مالولس » بعد شهر واحد من احتلال مانيلا أجمع الأعضاء على ضرورة إعلان دستور للحكومة ، وكان هذا يختلف تمامًا مع خطة مابيني التي كانت تهدف إلى أن يتجه اهتمام قوات الثورة أولاً إلى إحكام قبضتها على المناطق الخاضعة لها، وقد استند رأي الأعضاء على تبرير مؤدّاه أنه في حالة حصول الفلبين على اعتراف دوليّ باستقلالها ، فمن الضروريّ في هذه الحالة قيام الجمهورية بالشكل الذي يحدده الدستور .

وكان مابيني يرى في هذا إنهاءً للثورة التي لا يجب أن تبعثر طاقتها في مشروعات لم يحن

أوانها بعد ، بل يجب أن تواصل عملها العسكريّ أولًا ؛ لتحقيق الاستقلال وتحرير البلاد من القوات الأجنبية الدخيلة ، لذلك أصَرَّ على قيام دكتاتورية عسكرية لا لإخضاع المواطنين المدنيين ، ولكن لمواجهة المخاطر المحتملة في مثل تلك الظروف الصعبة من لحظات تقرير المصير ، مع وجود قوات أجنبية مستعدة للضرب في أي وقت .

احتدّ النقاش حول الإجابة على هذا السؤال : « هل يخضع الكونجرس للجيش أم يخضع الجيش للكونجرس ؟ » فكان من رأي مابيني أن يستخدم الجنرال «أجوينالدو» سلطاته في معارضة الدستور الذي أقره مجلس الكونجرس قائلا له : « إنه إذا كان على الحكومة أن تنتظر قرار الكونجرس فإنها لن تتمكن من مواجهة الخطر الطارئ انتظارًا للمداولات والمناقشات » .

وكان مابيني -وهو الرجل الكسيح- أعظم ثورية من أجوينالدو وأبعد منه نظرًا ، وهكذا كان في نظر الشبان الثوريين ، ولكن ضاعت صيحته هباءً ، وانتابه شعور بالحسرة عندما خضع أجوينالدو للمطالبين بالدستور ، ولم يغتفر له هذا العمل الذي اعتبره بمثابة حكم بالإعدام على الثورة الفلبينية .
والآن وقد اطمأن الأمريكيون إلى أن الثوار قد أصبحوا في حالة من الاضطراب الداخليّ لا تمكنهم من استخدام طاقاتهم بأكملها في المقاومة، فإنهم بدأوا يشتبكون مع القوات الفلبينية بعد أسبوعين من إعلان أجوينالدو للدستور الجديد.

كانت الحرب في هذه المرة تختلف تمامًا عن الحرب ضد الأسبان ، فإن القوات الأمريكية كانت تمتلك أسلحة حديثة سريعة الحركة ، لذلك كان تفوقها ساحقًا على القوات الفلبينية ، وخشي مابيني من جسامة الموقف فبعث للتفاوض مع الأمريكيين ثم استقال لفشله في إقرار السلام ، وقبل أجوينالدو الاستقالة . وَخَلَفَهُ « باتيرنو » فقبل الحكم الذاتيّ في ظل السيطرة الأمريكية ، وكان مابيني قد رفض هذا من قبل ، فقد كان من رأيه « أن الذين يقبلون ضم الفلبين إلى أمريكا شأنهم شأن الذين قبلوا الحكم الذاتيّ في ظل السيطرة الأمريكية ، فهم جميعًا فصيلة واحدة من الكلاب وإن اختلفت ألوانهم » .

كانت خطة « مابيني » في التفاهم مع الأمريكيين تقوم على الأسس الآتية :
أولًا : أن تقبل الفلبين الاعتراف أمام العالم أن الولايات المتحدة هي محررة الفلبين .
ثانيًا : أن تُمنح الولايات المتحدة امتيازات تجارية بالنسبة لوارداتها .
ثالثًا : أن تقبل الفلبين دفع ٢٠ مليون بيزو وهو المبلغ الذي سبق أن دفعته واشنطن للأسبان للتنازل عن المستعمرة بمقتضى اتفاقية باريس .

ورأى « مابيني » أن هذا الحدّ يكفي أداءً لدين شعب الفلبين تجاه الولايات المتحدة التي ساعدت الشعب في معركته التحريرية ضد الأسبان .
ورفض أن يعطي الولايات المتحدة أية امتيازات اقتصادية أخرى كالامتياز الذي طلبته أمريكا لاستكشاف ثروات جزر الفلبين ؛ لأنه يعتقد أن الدولة غير المستقلة اقتصاديًّا لا يمكن أن

يكون استقلالها حقيقيًّا .

يمثل تاريخ الاستعمار الأمريكيّ في جزر الفلبين هذه الحقيقة ، وإلى ذلك يشير المؤرخ الأمريكيّ « بول هـ. كلايد » Paul H. Clayde حيث يقول : « إن الذي يطَّلع على سجلات السياسة الأمريكية في الجُزُر لابد أن يعترف أن السياسة المُعْلَنة هي إعداد الفلبين للاستقلال ، فقد كان هذا هو الهدف الذي رَوَّجَت له الدّعاية الأمريكية ، ومع ذلك فإن السياسة الفعلية التي مَارَسَتها الولايات المتحدة لم تكن بهذه البساطة ، فإن أمريكا التي كانت تشير بيمينها إلى طريق الاستقلال السياسيّ، هي التي كانت تقبض في شمالها بجزر الفلبين في نطاق التبعية الاقتصادية .

كان التفاوض مع الثوار مجرد كسب للوقت استعدادًا للزحف الشامل وكانت الجمهورية الوطنية تتحرك من مالولس إلى مدن أخرى حسبما يقتضي الموقف العسكريّ ، بينما تتقدم القوات الأمريكية بدون رحمة لسحق الثورة في شمال لوزون حتى تمكنت من القبض على الجنرال « أجوينالدو » في ٢٣ مارس سنة ١٩٠١ ، ثم تدهورت المقاومة الفلبينية المنظمة سنة ١٩٠٢ عندما سلَّم الجنرا مِيجِلْ مَالافَارَ نفسه للسلطات الأمريكية .

وقع « مابيني » في أيدي الأمريكيين قبل ذلك في سنة ١٨٩٩ بمحافظة « نيفا إسيجا وقد بلغ سنه آنذاك الخامسة والثلاثين ثم حُدِّدَتْ إقامته ، وحاول فيما بعد أن يكتب ناقدًا لسياسة الولايات المتحدة في الفلبين ولكن لم تجرؤ الصحف على نشر مقالاته .
وعندما نسي الناس موضوع الاستقلال ، عُرض على مابيني منصب قضائيّ كبير ولكنه رفض ، حتى لا يُستغل قبوله على أنه رضاء ضمني عن الوجود الأمريكيّ في بلاده .
وفي سنة ١٩٠٢ أمر « تيودور روزفلت » بالكف عن أعمال القمع وإعلان العفو العام في الجزر ، وأُشيع في ذلك الوقت أن مابيني أقسم يمين الولاء للولايات المتحدة، ولكن فريقًا كبيرًا من المؤرخين ينكر هذا ؛ لأنها لا تتفق مع حياة الرجل ومواقفه التاريخية المشهودة وقوة إيمانه بمبادئه ، ومات « مابيني » حزينًا على ما أصاب الثورة وعلى ضياع الاستقلال .

الفلبين من بداية العهد الأمريكي
حتى نهاية الحرب العالمية الثانية

تكونت في مانيلا بعد استسلامها حكومة عسكرية أمريكية برئاسة الجنرال « ويسلي مَارِيت » ، وتكونت حكومات محلية في المدن التي سقطت في أيدي القوات الأمريكية، وفي ٤ يوليه سنة ١٩٠١ قامت حكومة مدنية برياسة « وليام هوارد تافت » على أساس التمهيد للحكم الذاتيّ وتمكين الساسة الفلبينيين من المشاركة في حُكم بلادهم ، وسَمَحت الدولة صاحبة السيادة بقيام بعض النظم الديمقراطية ، فقامت الأحزاب وتأسست الجمعية الفلبينية ، ثم أُنشئ مجلس شيوخ ومجلس نواب بمقتضى قانون جُونْس لسنة ١٩١٦ .

وتوجَّهت وفود القادة السياسيين إلى الولايات المتحدة للمطالبة بالاستقلال حسب ما وعد به قانون جونس . وتمكن الزعيم « كيزُونْ » في سنة ١٩٣٤ من الحصول على قانون جديد للاستقلال هو قانون « تَايْدنْجزْ ماكدوفي » ويقضي بإنشاء حكومة كومنولث تمهد للاستقلال خلال عشر سنوات ، ويمثل رئيس الولايات المتحدة مندوب ساميّ في مانيلا ، وقد وافق فرانكلين روزفلت على دستور جديد للحكومة في ٢٣ مارس سنة ١٩٣٥ وعُرض في الفلبين للاستفتاء العام ، وانتُخب « كيزون » بعد الاستفتاء رئيسًا لجمهورية « الكومنولث » .

كان « مانويل كِيزون » رجل إصلاح ، حاول أن يقترب بحكمه من العدالة الاجتماعية التي أصبحت مطلبًا مُلِحًّا من جانب الجماهير ، التي نهضت تثور على الأوضاع الإقطاعية والاستغلالية الطاغية ، فصدرت بعض القوانين لصالح العمال، وفُتحت أرض جديدة للاستغلال ، وأقيمت الطرق والكباري وتحسنت وسائل المواصلات الجوية والبحرية ، وأخذت الدولة على عهد الرئيس كيزون تشجع الأدب فأنشأت جوائز مختلفة للقصة والسِّيرَ والتاريخ والشعر والمقال .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فتوقفت حركة الإصلاح ، واحتلت القوات اليابانية الفلبين في ٨ ديسمبر سنة ١٩٤١ ، وسقطت آخر معاقل القوات الأمريكية في بَاتَيَانْ وكُوريجيدُور .
كان « دوجلاس ماك آرثر » قائد القوات الأمريكية يطمئن الفلبينيين خلال الحرب العالمية الثانية بأنهم في حماية قواته من أي عدوان خارجيّ ، فلما ضربت اليابان الأسطول الأمريكيّ في موقعة « بيرل هاربر » صُدم الفلبينييون صدمة كبرى ، ولم تلبث قوات الإمبراطورية المنتصرة أن اقتحمت جزيرة لوزون ونزلت في خليج لِنْجَايِنْ Linayen وأباري Apparri وخليج « لامون » Lamon Bay وفي أماكن أخرى متفرقة .
وقد أذهلت هذه الحوادث زعماء البلاد ، فأعلن الرئيس كيزون أن الكومنولث محايد ، ثم اضطر أن يرحل إلى استراليا مع بعض رجال حكومته .

واستمر القتال مريرًا بين اليابانيين والأمريكيين وتعرضت القوات الأمريكية للمجاعات والأمراض بسبب احتلال المناطق الشمالية الغنية بالأرز ، وبسبب الحصار الذي ضربته القوات اليابانية لمنع الإمدادات عنهم ، وفي تلك الأثناء قامت الكشافة الفلبينية بأعمال بطولية لإنقاذ الجيش الأمريكيّ من المجاعة .

ولكن الأمور كانت تسير من سيء إلى أسوأ ، فانسحب الأمريكيون من باتيان وأصبح تسليم الجيش الأمريكيّ أمرًا مفروغًا منه .

ولم يكن اليابانيون يريدون إجلاء القوات الأمريكية واحتلال الفلبين فقط ، بل كانوا يريدون فوق هذا أن يُذِلّوا الأمريكيين ويظهروهم بمظهر محتقر في أعين الفلبينيين ، وقد زادهم ثقة بأنفسهم ما حققوه من انتصارات ساحقة على بريطانيا في هونج كونج والملايو وسنغافورة

وبورما ، وعلى الهولنديين في أندونيسيا ، فلما اتجهوا إلى الفلبين كانوا يتوقعون أن يستقبلهم الأهالي كمحررين للبلاد .

وكان اليابانيون في ذلك الوقت يرفعون شعارًا يقول بأن آسيا للآسيويين ، وقد بذلوا جهودًا دعائية كبيرة لتذكير الفلبينيين بما تلقوه من اليابانيين في الماضي من عون ومساعدة أثناء الحركات الثورية ضد الاحتلال الأسبانيّ والاحتلال الأمريكيّ ، وكان ذلك بمثابة التمهيد لدخول الفلبين وضمّها إلى الامبراطورية اليابانية .

وزعم اليابانيون أنهم سيسمحون باستقلال الفلبين سنة ١٩٤٣ ، فلما تمَّ لهم الاستيلاء على السلطة أقاموا حكومة فلبينية خاضعة لسيطرتهم ، انضم إليها بعض الزعماء السياسيين قِيلَ أنهم أرادوا أن يحموا مواطنيهم من عسف الغزاة .

ولم يلبث الفلبينيون أن شعروا بوطأة الجيش اليابانيّ وسوء معاملته للأهالي ، حيث كان الجنود يَسْطُون على الدجاج والخنازير بدون ثمن ، ويصفعون الأهالي الذين لا يظهرون الاحترام لليابانيين ، كما لجأوا إلى القوة والتعذيب وقَتْل المدنيين .

وَيَحكي الفلبينيون الذين عاصروا هذه الفترة قصصًا غريبة عن سوء معاملة القوات اليابانية لهم ، وكيف كان الجنديّ اليابانيّ يوقف الواحد منهم في الطريق فيجرده من ساعته ونقوده وغير ذلك من الممتلكات الشخصية ، بل إن المواطن الفلبينيّ كان يخرج من بيته فلا يأمن على حياته من الاعتداء ولا يعرف إن كان سيعود إلى أسرته أم أنه لن يعود ، فقد كان اليابانيون يلتقطون الناس من الشوارع ويذهبون بهم إلى جهات نائية لتسخيرهم في مختلف الأعمال .
وتحت تأثير هذه الصورة البشعة للجيش اليابانيّ في الفلبين ، اتَّجه المواطنون بالآلاف لينضموا إلى حرب العصابات التي اتسعت واستفحل أمرها ، خاصة بعد أن أصبحت المؤن والأسلحة تَرِد إليها من استراليا بانتظام .

كانت فترة الاحتلال اليابانيّ فترة مُعَاناة وعذاب أليم للفلبين ، لذلك لم تَكد تَصل القوات الأمريكية في ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٤ إلى ليتي وسَامارَ ولُوزُونْ حتى هبَّ الأهالي يستقبلونها استقبال المحررين ، وقد أَنزل الحلفاء في "لَيْتِي" ربع مليون جنديّ ، وحاول اليابانيون صد هذا الغزو فَخَسِروا أَغلب ما بقي من أُسطولهم ، وخلال الحملة على ليتي تم غزو مِنْدُورُو ، ومَارِيْنْدُوكْ .

لم يكن أحد يتصور أن تنهار القوات اليابانية بهذه السُّرعة بعدما حققته من انتصارات ساحقة على القوات الإنجليزية والهولندية والأمريكية، وطردت جيوش الإمبراطوريات الغربية كلها من شرق آسيا ، وأصبحت جميع دول المنطقة خاضعة لسلطانها المطلق ، حتى أن قامت أمريكا بإسقاط القنبلة الذُّرية الأولى على هيروشيما وأعقبتها بالقنبلة الثانية على « ناجازاكي » فانهارت المقاومة اليابانية بتأثير المفاجأة المذهلة .

ولم يعد في مقدور القوات اليابانية بالفلبين أن تصمد للقتال بعد الكارثة التي أصابت الوطن الأم ، وبعد تحطيم أسطولهم في المياه الفلبينية ، ففي ٩ يناير سنة ١٩٤٥ نزلت القوات الأمريكية قُرْب « مانيلا » ، ولم ينتصف شهر فبراير حتى سقطت « لوزون » في قبضتها تمامًا ، وبقيت بعض الجيوب اليابانية تقاوم في يأس لعدة أشهر تالية .

الاستقلال

وَعَدَتْ الولايات المتحدة بمنح الفلبين استقلالها بمقتضى قانون « تَايدنجزماكدوفي للكومنولث والاستقلال » ، الصادر في عام ١٩٣٤ على أن يصبح نافذ المفعول في سنة ١٩٤٦ وقد عاقت الحرب العالمية الثانية الفترة التمهيدية لممارسة الحكم الذاتيّ الذي نص القانون على أن تستمر لمدة عشرة أعوام ، غير أن هذا لم يؤخر موعد منح الاستقلال .

وكان بعض الأمريكيين ومعهم بعض رجال السياسة الفلبينيين يرون تأجيل الاستقلال حتى يتم إصلاح ما أفسدته الحرب ، ولكن الغالبية العظمى كانت مع الاستقلال .
ومع ذلك فإنَّ مشكلة إعادة تشكيل حكومة الفلبين بعد انتهاء الحرب أصبحت أَمرًا بَالِغ الصعوبة ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن غالبية قادة الحزب الوطنيّ – الذي تزعم البلاد خلال فترة الكومنولث – كانوا قد تعاونوا مع اليابانيين ، فاعتُبروا من أجل هذا خونة ، وحاول « سرجيو أوسمينيا » رئيس حكومة المنفى الفلبينية وزعيم الحزب الوطنيّ بعد موت كيزون – أن يشكل حكومة من معارضي اليابانيين ، ولكنه أخفق وفاز عليه في انتخابات إبريل سنة ١٩٤٦ « مانويل روكساس » بمنصب رئيس الجمهورية و « كويرينو » بمنصب نائب الرئيس .

وكان الرَّجلان قد عملا في الحكومة التي أقامها اليابانيون أثناء الاحتلال فبرأهما الجنرال « ماك آرثر » من تهمة التعاون مع الأعداء بسبب خدمات غير محدودة كانا قد أدياها للسياسة الأمريكية ، وقد نتج عن هذا تصدع شديد في الحزب الوطنيّ وظهور الحزب الحر الجديد الذي تولى زمام الحكم بعد الاستقلال .

وفي ٤ يوليه سنة ١٩٤٦ تجمع مئات الألوف من الفلبينيين في ساحة « لُونِيتا » غير بعيد عن الموقع الذي استشهد فيه « هُوسي ريسَالْ » ، وتحت أقواس النصر وصواريخ الابتهاج كانت هناك ثورة شعبية تتخلّق في أعماق الطبقات الفقيرة بين الفلاحين البسطاء في محافظات التجالوج حول « مانيلا » ، فلما جاءت انتخابات سنة ١٩٣٤ ظهرت قوة شعبية جديدة تحت اسم ا"لسكدال" Sacdalistas الذين استطاعوا أن ينتزعوا بضعة مقاعد في مجلس النواب ، وأن يحتلوا عددا من المراكز الإدارية في المحافظات . وكان السكدال يتهمون الأحزاب الرسمية والزعماء بأَنهم باعوا الفلبين بقانون مزيف للاستقلال لكي يتَّحِدُوا مع الأمريكيين في عملية الاستغلال الدائم للجماهير .

وكانوا يطالبون بالاستقلال الحقيقيّ الفوري ويعارضون الكومنولث ، ويدعون إلى إلغاء المرتبات الكبيرة التي تبعثرها الدولة ، وإلى تخفيض الضرائب عن كاهل الشعب، والعمل على إصلاح الاقتصاد الوطني لإنهاء الفقر الذي تُعَانِيه الجماهير .
وكان نجاح زعماء هذه المنظمة الجديدة في الانتخابات مثار دهشة كبرى للساسة التقليديين

، فقد كانوا في نظرهم من الطبقات الدنيا التي لم تُمَارس الحكم ولا يصح أن تتطلع إلى ممارسة الحكم بنفسها .

وقبل ظهور السكدال لم يكن طريق المعارضة السياسية طريقًا سهلا ، بل كانت تَـحُفُّه الأشواك والعقبات ، وإذا رجعنا إلى بداية الاحتلال الأمريكيّ حتى سنة ١٩٠٥ ، نجد أن المعارضة السياسية في ذلك الوقت كانت شيئًا محظورًا ، ومنذ سنة ١٩٠٧ كان حزب الأغلبية هو الذي يهيمن على العمل السياسيّ ويحتكره ، ولم يستطع حزب ما أن يتحول من الأقلية إلى الأغلبية ، فلما تَرَبَّعَ كِيزْونْ في زعامة الحزب الوطنيّ المتحد كانت سياسته تقوم على ابتلاع المعارضة وإذابتها ، وكان تاريخ الأحزاب السياسية في الفلبين على مدى سنين طويلة تسجيلًا لاندماجات واتحادات وتضامن ومصالحات و تسويات .

فلما ظهر السكدال في مجال العمل السياسيّ ، أصبحوا ظاهرةً شاذة في مجرى السياسة الفلبينية التقليدية ، فقد كانوا يمثلون طبقة الفلاحين التي طحنها الإقطاع المستغل ولم يترك لها غير كفاف العيش ، ولم تجد من قبل من يرتفع بشكواها إلى الحكومة ، ولكنها بظهور السكدال أصبحت وجهًا لوجه أمام الطبقة الحاكمة ، فقد كان السكدال يعتقدون أنهم الشعب الحقيقيّ وأنهم وَحدَهُم الفلبينيون قَلْبًا وقَالِبًا .

لقد امتلأ تاريخ الفلاحين الفلبينيين بالانفجارات الثورية تنفيسًا عن القلق الدائم الذي سَيْطر على حياتهم ، بسبب الأوضاع الاستغلالية التي فرضت عليهم وَوَرثوها جيلًا بعد جيل ، وإذا كانت ثورة السكدال تعتبر أكثرها خطرًا فقد سبقتها ثورات أخرى لها دلالتها في تاريخ الفلبين الحديث . وكانت السلطات تُسَارع إلى قَمْعِها وإخفاء أسبابها الحقيقية عن الجماهير .

ففي سنة ١٩٢٣ هاجمت جمعية سرية تدعى « كُولُورمْز » Colorums مركز قوات « الكونستابيولاري » [الشُّرطة] في شمال شرقي جزيرة « مِنْدناو » واستولت على السلطة ، ولم يستطع البوليس القضاء على قوة هذه الجمعية إلا بعد عام كامل من المحاولات ، قُتِلَ خلالها ١٣٥ عضوًا من أعضائها ، ولم تشر السلطات إلى الدوافع الحقيقية أو المظالم الكامنة وراء هذا التمرد وإنما عَزَّتْهُ إلى التعصب الدينيّ .

وحدث مثل هذا في بُولَكَانْ في أواخر عام ١٩٢٧ على يد جمعية سرية أخرى تسمى "تانجولان " Tangulans . وفي سنة ١٩٣١ تفجرت ثورة في مناطق الفلاحين الساخطين بشمال لُوزُون عرفت بثورة « تَايوج » Tayug ويصف أحداثها مراقب أمريكيّ فيقول : « قامت عصابة مسلحة من بضع مئات من الفلاحين فقبضت على أحد رؤساء مجالس المدن في شمال لوزون ، وجردت قوات حامية البوليس من السلاح وقتلت الضباط ، ثم توجه المتمردون إلى مكتب البريد فأحرقوه وضربوا مجلس المدينة ودمروا سجلات الأراضي واستولوا على المدينة » .

وفي هذه المرة أيضًا – سارعت الجهات الرَّسمية لتصف الثورة بأنها نتيجة التعصب الدينيّ

، ولم يحاول أحد أن يُشِير إلى الدوافع الحقيقية وراء ثورة الفلاحين ، وأنها ردّ فِعْل طبيعي من جانب الفلاحين على ظُلم الإقطاع ، وعلى سُوء المُعَاملة التي يتلقونها على أيدي رجال البوليس الذين يَخْدمون الطبقة الإقطاعية .

ورفض سَاسَة الفلبين -[وأكثرهم من الطبقات الرأسمالية والإقطاعية]- التحقيق في هذه الثورة حتى لا تنكشف المظالم التي يُعانيها الفلاحون ، كما رفضوا وصفها بالثورة خشية أن يتكرَّر حُدُوثها في مناطق أخرى .
والعجيب في الأمر أن هؤلاء الفلاحين الثائرين هم أنفسهم الذين وُصِفُوا دائمًا بأنهم فقراء واتُّهِمُوا بالسذاجة والاعتقاد في الخرافات والشعوذة والإيمان بالأشجار المسحورة والآبار المقدسة وبكرامة القديسين ومعجزاتهم .

وقد اختلطت بعض هذه المعتقدات أحيانا بثورات الفلبينيين ، فبرزت أحداث امتزج فيها الواقع الأليم بصور من المضحكات : ففي سنة ١٩٢٧ ظهر في « جزيرة نجروس » – وهي جزيرة غنية مزدحمة بالسكان – رجل زعم أنه إمبراطور واتخذ لنفسه اسمًا له وَقْعٌ مَهِيب على الأسماع هو « فلور إنترنشرادو » Flor Intrencherado ، ووعد الإمبراطور أهل الجزيرة بتحريرهم من الضرائب الرَّسمية ، وبتقسيم ثروات مُلاَّك الأراضي عليهم ، وأخذ يبيعهم ألقابًا حربية ومَدَنِية رفيعة ، وبجمع الإتاوات لنفسه ، ويُجَهِّز قوات خاصة من أتباعه الذين قُدِّرَ عددهم بحوالي عشرة آلاف رجل .

وبَدَأَ الدم يسيل عندما حاول أتباع الإمبراطور الاستيلاء على عدد من المجالس البلدية؛ فاصطدموا بالبوليس وكانت معارك كثيرة انتهت بالقبض على الإمبراطور « فلور » وقُدِّم للمحاكمة فَحُكِم عليه بالعَتَه حيث قضى بقية حياته في مستشفى الأمراض العقلية .

وذَهبت أُسطورة الإمبراطور فلور مع الأيام ، ولكن بقيت حقائق البُؤْس والمُعَاناة وضَنك المعيشة التي يعانيها الفلاح الفلبينيّ مقهورًا ، ويتلمَّس في كل يوم طريق الخلاص مع كل بارقة أَمل تلوح له . حتى كان اليوم الثاني من مايو سنة ١٩٣٥ ، وهو التاريخ الذي انطلقت فيه ثورة السكدال في المحافظات المتاخمة لمانيلا منبثقةً من نفس الظروف والأوضاع الاجتماعية التي انبثقت منها الثورات السابقة ، ولكن ثورة السكدال تميَّزت عن جميع الثورات السابقة بطابعٍ خاصٍ يجعلها حَدَثًا تاريخيًّا لا يُمكن تَجَاهله في أيّ دراسة جادة لتاريخ الفلبين السياسيّ .

وكما تنبت الأشجار الكبيرة من بذور ضئيلة كذلك كانت بداية حركة السكدال ، فُصِلَ موظف صغير من موظفي مجلس الشيوخ كان يُدعى "بنينو راموس" Penegno Ramos بسبب عصيانه واستمراره في تشجيع الطلبة على الإضراب في المدارس الحكومية بمانيلا .

خرج « راموس » من وظيفته حَانقًا على السلطات عاقدًا العزم على أن يمضي في تحقيق أهدافه لتحطيم الرئيس « كِيزُونْ » وأنصاره ، وضَرْب نظامهم السياسيّ ضربة قاضية .

ولم يلتفت إليه أحد في ذلك الوقت فلم يكن لشخصيته اعتبار ، ولم يتنبه أحد إلى مدى ما يُمكن أن يُشَكِّله من خطر على النظام في المستقبل القريب . ومع ذلك فقد كان البوليس يُتابع « راموس » ويتعَقَّب نشاطه في ملفات خاصة ، وقد أصبحت هذه الملفات ذات أهمية كبيرة – فيما بعد – لكل من تصدى لمعالجة ثورة السكدال .

وتحتوي ملفات البوليس على حقائق تفصيلية عن تنظيم جمعية سرية وجمع اشتراكات من الأعضاء وتوزيع منشورات في جهات متفرقة ، ولكن متى بدأ هذا التنظيم ؟ لا أحد يعلم على وجه اليقين .

وكل ما يُعْرَف في هذا الشأن هو أن أول منشور للمنظمة ظهر في ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٠ تحت اسم « السكدال » The Sacdal ، وهذه الكلمة في لغة التجالوج معناها الاتهام أو الضرب ، وكان الغرض الأصليّ للمنظمة هو التشهير بكبار موظفي الحكومة للانحرافات التي ارتكبوها ضد البلاد وضد جماهير الشعب بصفة خاصة .

وكانت الاتهامات التي توجهها نشرة السّكدال اتهامات بالغة الحدة والصراحة لدرجة أنَّ الصحف لم تجرؤ على أن تشير إليها في ذلك الوقت .

انضم إلى السكدال مجموعات كبيرة من المواطنين كان من بينهم زعماء الحركات الثورية السابقة ، وكان تكتيك « راموس » – زعيم الحركة – قائمًا في أول الأمر على أساس عدم الاشتراك في الحكومة ومُقَاطعة الانتخابات العامة ، والامتناع عن دفع ضريبة الرءوس أو « السديولا » Seduala وهي ضريبة مُذِلّة من آثار الاحتلال الأسبانيّ ، بقيت قائمة في ظل الحكم الأمريكيّ .

كان الفكر السياسي لحركة السّكدال فكرًا تقدميًّا تميّزوا به عن الأحزاب الفلبينية الأخرى ، فهم لم يحصروا نضالهم في إطار فكرة الاستقلال فحسب ، وإنما تجاوزوه إلى فكرة العدالة الاجتماعية التي تمثلت عندهم في خفض الضرائب عن كاهل الفقراء وتوزيع الثروة توزيعًا عادلًا ، وتمليك صغار الفلاحين الإقطاعيات الزراعية الكبيرة خاصة ما كان منها ملكًا للكنيسة .
وانتشرت الحركة بسرعة كبيرة في « بُولكَانْ » وغيرها من المحافظات التي تحلِّقُ بمانيلا من الشرق والجنوب وهي محافظات : رِيسالْ ، ولاَجُونَا ، ومارِينْدُوكْ ، وبَتَنْجَاس وكافِيتي .

تقدَّم السكدال في انتخابات سنة ١٩٤٣ بمُرَشَّحَيْن لمجلس الشيوخ واثنين آخرين للمجلس النيابيّ ، وبعدد أكبر لمراكز المحافظين ورؤساء مجالس المدن . وكانت حملتهم موجهة في أساسها إلى جمهور الأقاليم ، فكانوا يعقدون خلال هذه الحملات اجتماعات جماهيرية حاشدة . ونجح « السكدال » في أغلب المواقع التي تقدموا إليها، وكان هذا النجاح دليلًا على نفوذهم

القوى وسط الجماهير وعلى نجاح خطتهم في التشهير بالزعماء التقليديين وبسياستهم الفاسدة.

وكان السكدال يخصُّون الرئيس كِيزُونْ بالذات بحملة مركزة من الاتهامات ، ثم يختمون اجتماعاتهم بتوزيع صورة لرئيس مجلس الشيوخ مع إحدى نجوم السينما في هوليود وهو ينظر إليها مأخوذًا بجمالها ، وصورة أخرى لأحد رجال الدولة في حديث مع « روزفلت » ، ويقصدون بهذه الصورة الإشارة إلى أن السياسيين الفلبينيين يضيّعون الوقت والمال في أمريكا على مفاوضات هازلة لن تجدي نفعًا في قضية الاستقلال .
أصبح « راموس » بعد انتخابات سنة ١٩٣٤ وبعد نجاح مرشحي السكدال – مصدر اهتمام الصحافة الحرَّة في الفلبين ، وعاد الموظف الصغير الذي طُرِدَ من قَبل من وظيفته إلى « مانيلا » مرة ثانية ليشرح للرأي العام أهداف سياسته ، ويُزيل عن الأذهان كثيرًا من الأفكار الخاطئة التي شاعت حول حركة السكدال ، فقال في تصريح له : " إذا كان السكدال يتكاثرون فإن هذا ليس بسبب دعوتنا إلى التمرد كما يتوهَم بعض الناس ، فإننا ضد التمرد وضد العنف ، ويوم تتحول الأمة كلها إلى سَكْدَالْ فلن نكون بحاجة إلى قوات الكُونْسَتابيُولاَرِى أو إلى الجنود أو الشرطة ؛ لأن السكدالية قائمة على السلام وعلى النمو الحر والكمال الأخلاقيّ للأفراد ".

"إنَّ الأوضاع القائمة هي التي جعلت الشعب يَنْحَطّ ونحن نريد مساعدته ، فالأحوال في الفلبين ليست كما ينبغي أن تكون ، نحن لسنا ضد الأجانب ولكننا نعتقد أن الفلبينيين أولى بالرعاية من الأجانب . ومن البديهيّ أننا لا نستطيع أن نساعد الآخرين ما لم نقدر أولًا على مساعدة أنفسنا . ولن نستطيع أن نساعد أنفسنا طالما نحن خاضعين لسلطان الغير مُسْتَعْبدين له . لهذا نطالب بالاستقلال . ولكي نُبرهن على جدّيتنا فإن نوابنا على عهدهم بأن يستقيلوا إذا لم تحصل البلاد على استقلالها في نهاية عام ١٩٣٥"
" ونحن نريد أن نضرب للشعب مثلًا على أننا دائمًا نعني ما نقول .. ولا نفعل كما يفعل « كِيزْونْ » و « أوْسمينيَا » فكلاهما يُضمر رغبته في الاحتفاظ بالسلطة ولا يعلن عن ذلك ، وهما في واقع الأمر من أعداء الاستقلال . إنَّ الفلبينيين في الوقت الحاضر كالنبات الذي يحاول أن ينمو ويكبر تحت نبات آخر ، وطبيعيّ أنهم لن يستطيعوا النمو والازدهار تحت مثل هذه الظروف الصعبة ".
" أما بالنسبة لبرنامجنا فإننا نسعى للحصول على الاستقلال الكامل المباشر من الولايات المتحدة الأمريكية ، كما نَصَّ على ذلك قانون « جونس » ونطلب استبعاد قانون « ماكْدُوفي » الذي يُعْتَبر وسيلة للتملص مما وعد به قانون جُونْس . كما نُطَالب بإلغاء ضريبة السدْيُولاَ وإعادة النظر في ضريبة الأرض . وضرورة إجراء بحث وتحقيق في جميع الأراضي التي يملكها الرهبان لمعرفة أسباب اتساع مساحتها بشكل غير معقول ".

"ونُطالب بإنشاء جيش فلبينيّ وطنيّ مكون من ٥٠٠ ألف من الشبان الأصحّاء .. وتعليم اللهجات المحلية في المدارس الحكومية واستخدامها في المحاكم الوطنية .. وجعْل المحامين العموميين يدافعون بدون أجر عن العملاء الفقراء وتخفيض أجور كبار الموظفين .. ورَفْع

مرتبات المدرسين والعمال ورجال الشرطة . وتطبيق النظام الأمريكيّ في الاقتراع باستخدام الآلات الحاسبة لتجنب ما يقع من غش في لجان الانتخابات عندنا . هذه بعض الأهداف التي قمنا من أجلها . ولها ندعو الأنصار . إننا نُناضل من أجل مبادئ معقولة .. وإذا أُتيحت لنا الفرصة فسوف نحقق الخير الكثير ".

وهكذا.. كانت دعوة « السَّكدال » إلى الشعب تحتوي على بعض أفكار رئيسية ملخصها : أن الشعب مغلوب على أمره وأن ساسته الأنانيين يخدعونه ويَثْرون على حسابه .. ولكي يستمروا في خداعه أهملوا الاستقلال الذي يتبنّاه « السكدال » ، وأن إقامة الكمنولث سوف تقضي نهائيًا على الاستقلال ، وستمنح محتكري السياسة الاستمرار في السلطة لكي يسمحوا للأجانب بنهب ثروات البلاد ، ثم يشتركون جميعًا في اقتسام الغنيمة في حماية الحِراب الأمريكية .. وأن الشعب إذا ساند « السكدال » فإنهم سوف يحصلون على الاستقلال الحقيقيّ قبل نهاية ديسمبر سنة ١٩٣٥ .

فلماذا انفجرت ثورة السكدالّ في هذا التاريخ بالذات ؟

إنَّ استعراض الأحداث السياسية التي كانت تجري في ذلك الوقت هي التي تُحَدِّد الإجابة على ذلك ، فقد نجح "كِيزُونْ" في انتخابات سنة ١٩٣٤ ثم تضامن "أُوسْمِينيا" معه ، فبدا واضحًا أنه لن توجد معارضة حقيقية في الكونجرس ، وفي ذلك الوقت كان « روزفلت » قد وافق على دستور الكمنولث في ٢٣ مارس سنة ١٩٣٥ ، وأوشك عرضه على الشعب في استفتاء عام تحدَّد له يوم ١٤ مايو سنة ١٩٣٥ ثم يلي ذلك إقامة الكمنولث ، وهذا معناه أن الحزب الحاكم سوف يتربع على السلطة عشرة أعوام كاملة ، فإنَّ نظام الكمنولث كان يقضي بمنح الفلبين حكمًا ذاتيًا تحت السيطرة الأمريكية خلال عشرة أعوام تمهيدًا للاستقلال .

وقد رأى "السكدال" أنه إذا قامت الثورة قبل يوم ١٤ مايو سنة ١٩٣٥ ، فسيكون من نتائجها تعطيل الاستفتاء وبالتالي مَنْع قيام الكمنولث .
وكانت خطتهم أن يقوم فريق من الرجال المسلحين بالاستيلاء على مجالس المدن والقَبض على رجال الحكومة في ١٤ مدينة على الأقل تمتد على قوس كبير يحلّق بالعاصمة (مانيلا) في « جَابَانْ » و « نُوفَا إسيجَا » و « كَافِيتي » .. والمعروف أن « جَابَانْ » تبعد عن « مانيلا » تسعين كيلو مترًا ناحية الشمال ، بينما تبعد كافيتي ثلاثين كيلو مترًا فقط تجاه الجنوب الغربيّ .
وفوجئت قوات « الكُونَستَابْبُولاَرِي » بالثورة مساء يوم ٢ مايو سنة ١٩٣٥ وكانت المواصلات مقطوعة بين المدن التي قامت فيها الثورة وبين مانيلا .. وكان رئيس الكونْستابْبُولارِي في تلك الأثناء يبحر مُسافرًا على ظهر سفينة تجارية بعيدًا عن موقع الحوادث ولا يمكنه الاتصال اللاسلكيّ بأية جهة .

اشتعلت الثورة في جميع المناطق التي حدَّدها السّكدال ، واشترك فيها الرجال والنساء والشبان .. وقد قَدّرت الجهات الرسمية عدد الذين اشتركوا في الثورة بحوالي سبعة آلاف

سكداليّ .. غير أن البوليس قدّر أعضاء الحزب بسبعين ألف عضوًا ، ومن الطبيعيّ أن تُخفي السلطات العدد الحقيقيّ للثوار تَهْوينًا من شأن الثورة ، ولذلك فإن التقديرات الرسمية لا تكفي للتعرف على هذه الثورة وأبعادها الحقيقية ، إلا أن جميع الأدلة تُشير إلى أنها كانت حركة شعبية خطيرة ، استطاع الفلاحون فيها أن يستولوا على السلطة في كثير من المناطق ويُعْلِنوا العِصْيان المُسَلَّح ويشتبكوا مع قوات الحكومة في معارك دموية شديدة راح ضحيتها كثير من الثوار .

ويكفي أن نعرف أنه في مدينة واحدة هي « كَابُوياوْ » Cabuyao قُدِّر عدد القتلى فيها بأكثر من ٣٥ وبلغ عدد الجرحى ١٩ جريحًا ، وهذه معركة واحدة من المعارك العديدة التي خاضها الشعب في يوم الثورة .

وعلى أي حال لا تُقَاس قيمة هذه الانتفاضات الثورية بعدد ضحاياها . ففي مصر مثلا: قام الفلاحون بثروات ضد الإقطاع كالثورة التي اشتعلت في قرية بُهُوتْ سنة ١٩٥١ ، ومع أن ضحاياها كانوا قلّة إلا أنها اعتبرت من علامات السخط الشعبي على الأوضاع الاستغلالية المتحكمة ، وأصبحت بذلك مقدمة من مقدمات الثورة المصرية في ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ، ولا يستطيع مؤرخ أن يفهم الظروف التي قامت خلالها الثورة المصرية ، إذا تجاهل ثورة الفلاحين في « بُهُوتْ » على الإقطاع المستغل .

وبهذا المعنى نفسه يُمكن أن نفهم قيمة الثورة الشعبية التي قادها السكدال، ومكان هذه الثورة من التاريخ السياسيّ للفلبين ، ولولا الوجود الاستعماريّ الذي كان قائما بكل ثقله في ذلك الوقت ، ولولا التعاون الوثيق بين الفئات الحاكمة واستنادها إلى قوة الاستعمار في قمع الثورة ، لكان للفلبين شأن آخر في التاريخ .

لم تستطع الحكومة أن تصف الثورة هذه المرة بأنها اضطرابات بسبب التعصب الدينيّ، فقد كانت أسبابها مُعْلَنة وواضحة ، وكان زعماؤها قد نجحوا في نشر دعوتهم على أوسع نطاق ، كما فشلت محاولة إخفائها أو التستر على أنبائها ، حيث كانت من السعة والقوة بدرجة لا يمكن تجاهلها .

كذلك لم تفلح محاولة نسبتها إلى تدبير أو تحريض أجنبيّ ، لأن شعبيتها كانت أوضح وأقوى من أي محاولة لتشويهها . صحيحٌ أن رَامُوسْ زعيم الحركة كان على صلة باليابان وكان يتخذ من هذه الصِلة فرصة للاستعانة باليابانيين في طبع المنشورات بكميات كبيرة لنشرها وتوزيعها في الفلبين على أوسع نطاق ، كما أنه كان يُشَجِّع الثُّوار ويطمئنهم إلى أنهم لا يقفون وحدهم في المعركة وأن اليابان من ورائهم ، وأن الأسطول الياباني والقوات الجوية اليابانية مستعدة للعمل فور نشوب الثورة لطرد القوات الأمريكية من البلاد . ولكن لم يتعد دور اليابان أكثر من المساعدة والتشجيع، أما الثورة نفسها فهي فلبينية لحمًا ودمًا .

لم يكتب النجاح لحركة السكدال، فقد أرسلت الحكومة قوات ضخمة من الكُونْستَابْيُولاَرِي

استطاعت أن تُصَفِّي الثورة خلال أسبوعين ، ولم تتورع من اتخاذ أعنف الأجراءات وأقساها ، فقتلت أعدادا كبيرة وتمكنت من القبض على أعداد أخرى من منظمة الحركة فأودعتهم السجون ، وبذلك انتهت حركة « السكدال » .

يقول أحد الثوار الذين تم القبض عليهم أمام لجنة التحقيق:
" لقد علمت أن الاستقلال سوف يكون خيرًا .. ولن أدفع ضريبة السدْيُولا .. وأنا لا أقرأ نشرة السكدالَ لأنني لا أعرف القراءة ، ولكنى انضممت إلى الحركة ودفعت لهم إشتراكًا .. نصف بيزو "..
وعندما تحرَّت اللجنة عن دخل هذا الشاب وجدت أنه لا يزيد عن خمسة بِيزْو في الشهر أي حوالي خمسين قرشًا تقريبًا ، وأن لديه زوجة وطفل ينفق عليهما من هذا الدخل ، ومع ذلك فإنه ساهم بجزء منه في الحركة ، دليلا على عمق تأثير السّكدال في الجماهير ومدى إيمانهم بها .

وقال سجين آخر وهو رجل في سن الأربعين يعرف بعض القراءة والكتابة : « لقد وَعَدَنا قانون جُونْس بالاستقلال وجئنا لنأخذه ... أنا لا أريد الدستور ؛ لأنه مجرد كلام. وأنا ضد الحكومة الأمريكية ، لقد مُنِعْنَا من عقد الاجتماعات ، ونحن نريد الحرية ... وإذا حصلنا على الاستقلال فسوف نأخذ الأرض من الأجانب » .

وهذا شاب آخر من (كَابُويَاوْ) أَنْهى في دراسته بالمدرسة الصف الرابع ، ويعتبر أكثر ثراء من زملائه الآخرين ... قال وهو يُعَبِّر أقوى تعبير عن الدوافع التي حركته للثورة : « أنا لا أعرف شيئا عن الدستور ولكنى ضد الحكومة القائمة وفقًا لمبادئ قادتي .. لقد مُنعت من حقي في التعبير عن رأيي في خطاب حُرّ ومن الاجتماع في ١٦ إبريل – وقال لنا القادة إنَّ المصالح الأجنبية في الفلبين تعرقل مصالحنا الحقيقية . وأنا أومن بأن يكون لنا حكومتنا المستقلة ، وكان راموس في اليابان يعد السلاح والرجال لينقضَّ على الحكومة ويساعدنا في نيل الاستقلال .. وعندما يتم الاستقلال لن أدفع ضريبة السديولا وسوف تكون مصالحنا في أيدينا » .

وتحكي امرأة من القادة – تخطَّت الصف الخامس في تعليمها وكانت أمًّا لخمسة أطفال – قصةً تصور فيها أن الاستقلال هو الباب المفتوح لتحسين ظروف المعيشة .. قالت: « إنَّ الأمور سيئة ونحن لا نستطيع أن نرسل أبناءنا للمدارس بدون نقود » ، ثم تُردّد القصة الشائعة عن فساد البلاد وعن مُلاَّك الأراضي الجشعيين ، وعن المرابين والمحامين المتلاعبين ، ثم تستأنف قصتها قائلة : « ولما كنا قد استُنْزِفنا بواسطة هذه الماصّة ، فإننا لم نستطع دفع ضرائب الأرض لمدة أربع أو خمس سنوات وسُجِن زوجي ؛ لأنه لا يملك نقودًا ليدفع ضريبة السدْيُولا . نحن ضد الدستور وضد الزعماء الذين وعدونا بالاستقلال ثم خَدَعُونا .. ونحن نؤمن أنه لا خلاص لنا من كل هذا الشقاء إلا بالاستقلال » .
لقد وَضَعت هذه المرأة المتحمسة أطفالها في السريرليناموا وخرجت لتلحق بالثوار عندما دُعيت إلى كَابُويَاوْ .

وهذا رجل يعبّر عن رغبته العاطفية في الاستقلال حيث يقول : « أنا أريد الاستقلال الفوريّ .. أُريد أن تتحرر بلادي حتى تصبح ندًّا للبلاد المستقلة الأخرى .. وأُعارض الزعماء الحاكمين ؛ لأنهم قبلوا الكمنولث دون إرادتنا ، أنا أريد الاستقلال مهما تحمّلت – أنا وأبنائي في سبيل ذلك من مشاقّ» .

ويعبّر هذا الرجل عن شعور يشاركه فيه زملاؤه حين يقول : « إنني لا أثق في عمليات الانتخاب ؛ لأن الحكومة تتدخل فيها وتزوّر النتائج لصالحها » .

وقال أحدهم : « إنني أفقر مما مضى .. ولا توجد فرصة للعمل ، أنا ضد الدستور .. وقال « رَامُوسْ » إنه شرّ ؛ لأننا في ظله لن نحصل على الاستقلال ، في كل انتخاب يجددون عهودهم بالعمل على الاستقلال ولكننا لم نحصل عليه » .

وهكذا كانت جميع الأقوال تصوّر موقفًا نمطيًا لآلاف المواطنين الفلبينيين تجاه الاستقلال ، الذي صُوِّرَ لهم طوال أربعين سنة مرادفًا للكرامة الوطنية والسعادة الشخصية . ولم يكن هناك أعمق في الدلالة على إيمان الرجل العاديّ بقضية بلاده كما ظهر في أقوال سَجين من قادة الثوار الذين استولوا على المجلس البلديّ في «سَانْ أَلْدِفينْسُو» وكان يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا وعلى جانب من التعليم .. وكان زميله في السجن ابنه الذي استجاب هو الآخر لدعوة السكدال ، فبعد حديث طويل معه عن الأحداث التي أوصلته إلى حالته التعسة ، حاول أعضاء اللجنة أن يُبيّنوا له خُطورة الثورة التي شارك فيها والأرواح التي ضاعت هباءًا .. ردّ ببساطة قائلا: مهما كان الأمر أنا ضد إقامة الكمنولث رغم أنف الشعب ..!

خَلّفت ثورة « السكدال » وراءها في نفوس الجماهير أثرًا عميقًا ، فقد أصبح شعار العدالة الاجتماعية الذي نادت به مطلبًا شعبيًا مُلِحًّا ، فلما استقر الأمر للرئيس «كيزون» حاول أن يقترب بحكمه من هذا المطلب ، فصدرت في عهده بعض القوانين لصالح العمال ، وبُذلت جهود لتهجير الفلاحين من المناطق المكتظة في وسط «لوزون» ، لتوطينهم في الأراضي الجديدة الشاسعة في مِنْدَنَاوْ[كان تهجير فلاحي «لوزون » إلى أراضي « مندناو » حلًّا سعيدًا لمشاكلهم ، ولكنه كان كارثة بالنسبة للمسلمين من أبناء مندناو المسلمين] .
من تداعيات الثورة أيضًا زيادة اهتمام حكومة كيزون بالإصلاحات الأخرى ؛ حيث أقيمت الطرق والكباري ، وتحسنت وسائل النقل والمواصلات ، واتجهت الدولة إلى تشجيع الآداب ، واعتمدت للكُتّاب والأدباء جوائز كثيرة في مختلف مجالات الكتابة ، وشهد التعليم توسَعًا ملحوظًا في ذلك العهد .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فتوقفت حركة الإصلاح ، واحتلت القوات اليابانية الفلبين في ٨ ديسمبر سنة ١٩٤١ ، بعد أن طردت القوات الأمريكية خارج الجزر ، ولم يلبث الفلبينيون أن شعروا بوطأة هذا الجيش الأجنبي وسوء معاملته وقسوته في معاملة السكان الآمنين ، فاتجهوا بالمئات للتطوع في حرب العصابات ، التي استفحل أمرها وامتد نشاطها

إلى كل شبر في جزر الفلبين . وعادت القوات الأمريكية من جديد لتعمل مع قادة العصابات لطرد اليابانيين ، وجرت حروب طاحنة مريرة عُرفت عند الفلبين باسم « حروب التحرير » قُتل خلالها ما يقرب من مليون فلبيني ، وتحولت معالم الحياة إلى ركام وخرائب ، وانتشرت المجاعات ، وعمت الفوضى في كل مكان ، وظهرت بوادر الصراع الطبقيّ من جديد أشد مما كانت على عهد « السكدال » ، ولم يعد هناك مفر من وقوع الحرب الأهلية : ففي خلال حروب التحرير ، انقسم الفلبينيون إلى فئتين ، تعاونت أولاهما مع قوات الاحتلال اليابانيّ ، وكان قوامها الطبقة الإقطاعية ، أما الفئة الأخرى ، فكانت من أبناء الشعب الوطنيين الذين هَبُّوا للدفاع عن بلادهم ضد الغزو الأجنبيّ وانتظموا في فرق حرب العصابات .

وكان من بين هذه الفرق ما تجمع تحت لواء الاشتراكيين والشيوعيين في منطقة لوزون ، وتكوّن من هذه الجماعات جيش شعبيّ عرف في لغة التجالوج باسم "هُوكْ بَالاَهَابْ" Hukbalahab ، وقد استطاع جيش الهُوكْ أن يسيطر على وسط لوزون ويشتبك مع القوات اليابانية ويكبدها خسائر فادحة ، حتى تم جلاء اليابانيين عن جزر الفلبين .
وقد أرعبت منظمة الهوك مُلاَّك الأراضي الذين تعاونوا مع الاحتلال اليابانيّ ، وكان الظن أن منظمة الهوك سوف تصفّي نفسها بعد الجلاء وتريح هؤلاء الملاّك ، الذين أخذوا يشعرون بخطرها ويعملون على مقاومتها بعصابات مضادة من أبناء الذوات ، ولكنها ظلت باقية لم ينفرط عقدها ، فقد كان أعضاؤها يجمعون السلاح ويعيدون تنظيم صفوفهم لمعركة ما بعد الاستقلال ، ومواجهة الطبقة الإقطاعية والفئات الحزبية الحاكمة التي تقبّلت من أمريكا استقلالًا منقوصا ، ووافقت على استمرار النفوذ العسكريّ الأمريكيّ في جزر الفلبين .

بدأ الصدام على أثر أزمة سياسة : ففي سنة ١٩٤٦ كان « روكْسَاسْ » قد تولَّى رئاسة الجمهورية عقب الاستقلال ، فلما فاز « لوِيْس تَارُوك » زعيم منظمة الهوك بمقعد في مجلس النواب ، طرده روكساس مع بقية النواب اليسارين من المجلس ، حدث ذلك في الوقت الذي كان فيه الكونجرس الفلبينيّ على وشك إصدار قانون يخوّل لرجال الأعمال الأمريكيين نفس الحقوق التي يتمتع بها المواطن الفلبينيّ في الدستور .
وكان طرد زعيم الهوك من مجلس النواب هو الشرارة التي أشعلت ثورة – الشعب في مناطق الفلاحين المتوترة بوسط لوزون ، وكانت في هذه المرة ثورة مسلحة تسليحًا قويًا ، بلغت من ضراوتها وانتشارها السريع حدًّا جعل الحكومة الفلبينية عاجزة تمام العجز عن مقاومتها . وقد استفحل خطرها بعد أن أتم الجيش الأحمر سيطرته على أراضي الصين في سنة ١٩٥٠ ، وبعد نشوب الحرب الكورية في نفس العام ، وباتت الفلبين بذلك قاب قوسين أو أدنى من الحرب .

وأصبح من الواضح أن قوات الهوك تشكل خطرًا مُتزايدًا على القواعد الأمريكية بوسط لوزون ، مما لا يتفق مع ما تصبو إليه أمريكا من تأمين لقواعدها التي تعبِّئ فيها قواتها العسكرية لضرب الحركات التحررية في آسيا والسيطرة على الحرب الكورية ، فلم تلبث أن تدخلت في المعركة من وراء جيش فلبينيّ صغير أعدته خصيصًا لهذه المهمة ، واستطاعت القوات الأمريكية أن تُحاصر ثورة الهوك وتفتك بها ، وتقبض على زعمائها ، وتدمر قوتها

الأساسية ، بينما بقيت بعض جيوبها الصغيرة تناوش السلطات من شعاب الجبال مدة من الزمن .

انتهت حركة الهوك وأفاق الناس من الأهوال التي صاحبتها وأخذوا يتطلعون إلى قيادة جديدة تعيد بناء الوطن وتصلح ما خربته الحروب الطويلة ، واتجهت الأنظار إلى شخصية رجل عسكري شاعت شهرته أثناء مقاومة حركة الهوك لنجاحه في سحق قواتهم ، كان هذا الرجل هو « مَاجْسَاي سَاي » ، الذي التقطه الحزب الوطنيّ ورشحه رئيسًا للجمهورية في انتخابات سنة ١٩٥٣ فتم له الفوز على منافسيه بأغلبية ساحقة .

واتخذ « مَاجْسَاي سَاي » خطوات إصلاحية كثيرة في البلاد ، واتسم عهده بروح جديدة أعادت الثقة والأمن إلى قلوب الناس . ولكنه لم يلبث أن قضى نَحْبَهُ في حادثة طيران .
وعادت مقاليد الأمور إلى أيدي الزعماء التقليديين يدبرون شئون السياسة بأساليبهم الحزبية العقيمة ، فتخلى الشباب من أنصار الرئيس الراحل مَاجْسَاي سَاي عن الحزب الوطني ، وأنشأوا حزبًا ثالثًا تحت اسم « الحزب التقدميّ » ولكنهم أخفقوا أمام التنظيم الراسخ للحزبين العتيدين (الحزب الوطنيّ وحزب الأحرار) ، فانضموا إلى غيرهم من الزعماء المنشقين على الحزبين وكونوا حزبًا آخر سموه « التحالف العظيم » ، كان من أهدافه أن يشكل قوة سياسية ثالثة في البلاد تمتص أحسن العناصر الحزبية ، غير أن الحزب الجديد أخفق بدوره كما أخفق سلفه ، ودفع هذا الإخفاق المتكرر بعض الشبان اللامعين من قادة الحزب الوطنيّ أن يتحوّلوا إلى حزب الأحرار ، مبررين موقفهم بأنه لا سبيل للوصول إلى أي تقدم ديمقراطيّ إلا من خلال نظام الحزبين الذي تعودت عليه الفلبين من زمن بعيد .
كانت الدعوة لقيام قوة سياسية ثالثة في الفلبين تعبيرًا عن المَلَل من الأوضاع الحزبية العتيقة ، تثور كالزَّوابع كلما تهيّأت لها الظروف ثم لا تلبث أن تنطفئ وتتلاشي حدّتها ، بعد أن تفرغ طاقتها في الكلام وحملات النقد والتجريح .

ولعل السبب الأصليّ في إخفاقها المتكرر يرجع إلى أنها حركة لا تحمل أي مضمون فكريّ حقيقيّ ، ولا أي إيحاء بتغيير جذري في صورة العمل السياسيّ ومبادئه التي لم يَطرأ عليها جديد منذ سقوط حركة الهوك ، التي خلفت وراءها فراغًا سياسيًا كبيرًا لم يجرؤ أحد حتى اليوم أن يملأه ، وكأن الفلبين لم تدرك المعنى الاجتماعيّ والفكريّ الذي انبثقت منه هذه الحركة التقدمية .

لقد تجددت الدعوة إلى إنشاء قوة ثالثة في سنة ١٩٦٤ [وكنتُ حاضرًا وشاهدا في مانيلا أثناء هذه الواقعة] ، عندما أعلن « رَاعُولْ مَنْجلُوبُسْ » في لقاء تليفزيونيّ أن الشعب يَتَطَلَّع إلى قيام حزب ثالث غير الحزبين الحاليين ، وثارت زوبعة صحفية حول هذا التصريح وتوالى الهجوم والنقد على صاحبه من كل جانب .
وكان أبرز ما وُجِّهَ إلى الدعوة من نقد هو أنها لا تحمل فكرًا سياسيًّا جديدًا ولا مبادئ جديدة ، وأن أصحابها هم نفس الوجوه الحزبية التقليدية ، وأن الحزب الجديد لن يكون أكثر من صورة طبق الأصل للحزبين الحاليين ولا داعي للتكرار .

قال « أَلْفِرِيد رُوسِيس » في مقال له بصحيفة « مانيلا تيمز » الصادرة بتاريخ ٢١ يوليو سنة ١٩٦٤ : « إنَّ القوة الثالثة تنجح فقط عندما تكون هناك حاجة واضحة إليها ، وعندما يتطلب الوقت أفكارًا جديدة ومبادئ جديدة ، أما الآن فإننا لا نزال ننظر إلى الانتخابات على أنها معارك شخصية بين رجال السياسة .

وتعرض للموضوع نفسه الكاتب الصحفي الشهير « جِي فِي كُرُوسْ » قائلًا : « عندما سئل « رَاعُولْ مَنْجلُوبُسْ » – هل هو على استعداد للتَّخَلِّي عن حزب الأحرار؟ فلم يُجِبْ بلا أو بنعم .. وإنما قال إنَّه حر مُخْلص بل زعم أنه أكثر إخلاصا للحزب من "مَكَبَاجَالْ نفسه" [زعيم الحزب ورئيس الجمهورية آنذاك] . ولم يوضح مَنْجلُوبُس لماذا يرغب الشعب في حزب ثالث ، وما هو الجديد الذي يتوقعه الناس في ذلك الحزب ولا يجدونه في الحزبين القائمين..؟ وإنما ذهب يستشهد بتعدد النظام الحزبيّ في الدول المتقدمة كاليابان وانجلترا ومعظم الدول الأوربية العَريقة في الديمقراطية ، وأنه لا داعي للتمسك بالنظام الأمريكيّ في الاقتصار على الحزبين .
وطبيعيٌّ ألَّا تلتقي محاولات مَنْجلْوبسْ في الدعوة للقوة الثالثة بما يتطلع إليه المثقفون الفلبينيون خاصة الأحرار منهم ؛ لأن ما يطمح إليه هؤلاء المثقفون الأحرار يقتضي تغييرًا ثوريًّا أصيلًا في السياسة الفلبينية ، الأمر الذي لم تتهيأ له الظروف بعد. فهم موقنون بأن الأوضاع القائمة سوف تستمر مدة طويلة ولن يتم التَّحوُّل المنشود سواء قامت قوة ثالثة أو انفرد الحزبان العتيدان بالعمل السياسيّ ، فسيظل الصراع العقيم على الحكم والنفوذ دون تغيير إلا في وجوه الأشخاص الذين يلعبون دورهم على المسرح أمام الجماهير ، بينما البعض الآخر يعمل خلف الكواليس حتى يأتي دورهم ، وهكذا تدور السياسة الفلبّينيّة في حلقة مفرغة .